عالم الفكر العدد 1
المجلد 43 (يوليو - سبتمبر 2014)

قراءة في أدب الرحلة البريطانية لمغرب القرن الـ 19

من خلال كتابات آرثر ليرد .. المغرب والمغاربة (1876) وزيارة للبلاط المغربي (1879)

د. خالد الشاوش*

تسعى هذه الدراسة إلى إلقاء بعض الضوء على كتابات الرحالة والطبيب الإيرلندي آرثر ليرد (1822 - 1879)، وعلى أفكاره من خلال كتابيه عن المغرب والمغاربة، وهي أفكار بلا شك كان لها صداها في أوساط الرأي العام البريطاني وصانعي القرار الإنجليز؛ نظرا إلى مكانة الرجل العلمية والكم الهائل من المعلومات التي تحفل بها هذه الكتابات.

* قسم اللغة الإنجليزية، جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال - المملكة المغربية.

وقد وقع الاختيار على هذا الكاتب/ الرحالة لعدة اعتبارات، منها ما يتعلق بالظرفية التي جاء فيها تأليف وإصدار الكتابين، ومنها ما يتعلق بطبيعة الكتابة لدى آرثر ليرد والمضامين التي لامسها، خاصة أنه لم يقف عند الجوانب التاريخية والديبلوماسية للمغرب، بل حاول كذلك - وبشكل أكثر عمقا - التطرق إلى النواحي الفكرية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية، والجغرافية، وحتى النباتية والحيوانية، لهذا البلد في تلك الفترة الحرجة من تاريخه.

اعتبارات منهجية

أما الإطار المنهجي الذي يحكم دراسة مثل هذه فهو طبيعة كتابات آرثر ليرد عن المغرب والتي يجب تصنيفها في إطار أدب الرحلات، مع استحضار الخصوصيات التي تميز هذا الفن عن غيره من الأشكال الأدبية والتاريخية الأخرى؛ فكتاب الرحلة هو نص مزيج من السيرة الذاتية، والحبكة الروائية، والنبذة التاريخية، والتقرير الصحافي، والوصف الجغرافي. والرحلة، بتعبير كريم بجيت «قبل أن تكون سلسلة من المعلومات المنظمة أو جملة من الانطباعات الشخصية هي نص جمالي مستقل في تراكيبه اللغوية وفريد في بنائه السردي»[(1)]. وبما أن هذا الوصف ينطبق تمام الانطباق على رحلات آرثر ليرد وكتابيه، فإننا سنسعى إلى التعامل مع الكتابين على هذا الأساس. ومن ثم لا بد من إبراز خصوصيات هذا النمط من الكتابة، خاصة في شقه البريطاني الذي تكاثر بشكل لافت للنظر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ ما يستدعي إعمالا لبعض آليات تحليل الخطاب الاستعماري ونظرية ما بعد الاستعمار.

ومن الأمور التي قد تساعد الدارس المعاصر على مقاربة هذين العملين هو المسافة التي تفصله عنهما على مستويين مهمين: أولا على المستوى الزمني، إذ إن هذا الدارس يحظى بمسافة تجعله خارج الظروف التاريخية التي برزت فيها النصوص المدروسة، وإن كانت هذه الظروف وتلك النصوص مازالت تؤثر في علاقة بريطانيا بالمغرب بشكل أو بآخر؛ ثانيا على مستوى جمهور القراء المقصود من طرف الكاتب، يعتبر الدارس المغربي على الخصوص (والقارئ المشرقي بصفة عامة) خارج هذا الإطار وغير مفكَّر فيه من طرف المؤلف. ولا شك في أن هذه الوضعية تعطي الدارس المغربي مسافة كافية للنظر إلى النصوص نظرة متأنية قدر الإمكان وغير محكومة بحتمية التفاعل بين المرسِل والمرسَل إليه. وعلى الرغم من هذا الاحتياط المنهجي، فإنه لا مفر من النظرة النقدية، ولو كانت من زاوية معينة، لأن عملية النقد المنهجي للنص والمساءلة الذاتية من خلاله هما اللتان تثريان الدراسة وتلقيان أضواء جديدة على النص... وعلى قرائه كذلك.

ولعل التفاعل بين القارئ/ الدارس الحالي مع نصوص كُتبت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر تستدعي، بالإضافة إلى إعمال الوسائل الأخرى لتحليل خطاب أدب الرحلة، وضعَ الكتابين في سياقهما التاريخي والظروف السياسية التي جاء فيها تأليفهما، مع شيء من التركيز على العلاقات المغربية البريطانية في الفترة المذكورة؛ وكذلك وضعَ الكتابين في الإطار الأدبي لفن الرحلات البريطاني الذي عرف بعض مميزاته الخاصة في القرن التاسع عشر؛ مع الإشارة إلى مكانتهما المتميزة في السيرة العلمية والأدبية للمؤلف. ولا بد في الأخير من التطرق إلى وضع الكتابين وأهميتهما بالنسبة إلى جمهور القراء في عصرنا الحاضر شرقا وغربا.

السياق التاريخي والسياسي

إن السياق العام الذي تندرج الرحلة في إطاره هو التحول الذي أحدثته هزيمة المغرب أمام فرنسا سنة 1844، ثم أمام إسبانيا سنة 1859، في نظرة الأوروبيين إلى المغرب، من جهة، وتضارب المصالح والأطماع الأوروبية بخصوص هذا البلد من جهة أخرى، وهو الصراع الذي منح المغرب هامشا من المناورة في تعامله مع كل دولة أوروبية على حدة. وقد انعكس هذا الوضع على طبيعة العلاقة التي كانت تربط المغرب ببريطانيا، والتي كانت تحكمها، من الجانب المغربي، سياسة الحذر والتوازنات التي كان ينهجها السلطان مولاي الحسن الأول، ومن الجانب البريطاني، التأثير القوي لـ جون دراموند هاي Sir John Drummond Hay والفترة الطويلة التي قضاها، بصفته قنصلا وقائما بالأعمال، ومبعوثا فوق العادة ثم وزيرا مفوّضا لبريطانيا في المغرب (من 1845 إلى 1886). ووفق خالد بن الصغير، فإن دراموند هاي هو الذي «سهر بكل عناية على خلق مصالح اقتصادية بريطانية قوية ورعايتها منذ التوقيع على معاهدة 1856. وعززها بجالية بريطانية ديناميكية، متوافرة على رساميل مهمة وتجربة قديمة بالسوق المغربية وحاجياتها»(2).

غير أن رحلتي آرثر ليرد الأولى (سنة 1872) والثانية (سنة 1877) جاءتا في آخر هذا العهد. ذلك أن العلاقات الثنائية بين المغرب وبريطانيا، بعد إحالة دراموند هاي على التقاعد، دخلت «في مرحلة جديدة اتسمت بمظاهر التوتر، خاصة بعد دخول ألمانيا إلى حلبة الصراع حول المغرب، فقام النائب البريطاني الجديد كربي كرين Kirby Green بممارسة ضغوط قوية على المخزن ما بين 1886 و1891 لانتزاع موافقته على مد خط تلغرافي وتجديد المعاهدة التجارية التي رُفضت أيام د. هاي»(3). وهو الأمر الذي عبر عنه عبدالهادي التازي عند حديثه عن علاقات المغرب الديبلوماسية مع الدول الأخرى من غير فرنسا وإسبانيا، والتي اتسمت «بطابع المجاملة أحيانا، والتصدي حينا آخر عندما تظهر مبادرة من دولة

ما تهدف إلى الطمع في جزء من أجزاء المغرب أو التعرض لمصلحة من مصالحه الأساسية»[4]. والمقصود بهذه الدول على وجه الخصوص إنجلترا وألمانيا، حيث إن الاتفاقات المبرمة من طرف المغرب مع كل منهما «كانت تعبر تعبيرا صريحا عن رغبة المغرب فرض سيادته ووجوده بالرغم من الظروف العصيبة التي كانت تحف به من كل جانب في هذه الأثناء»[5]. وقد أثرت هذه الظروف على رحالتنا، فصار محكوما في الكتابين معا بمنطق المقبل على «تحضير» مجال أفريقي غير محتل والاستفادة من مؤهلاته الاقتصادية والطبيعية والمناخية.

أما عن وضع الكتابين في سياق أدب الرحلات البريطاني، فإن آرثر ليرد جاء مسبوقا بعدد كبير من الرحالة الإنجليز الذين توافدوا على المغرب منذ منتصف القرن السادس عشر. وهم وإن اختلفت أهدافهم ودوافعهم، فإن أغلبهم سجلوا ملاحظاتهم ومشاهداتهم وانطباعاتهم على شكل كتب ومذكرات ورسائل وتقارير مطولة. وكيفما كان حظ هذه الكتابات من الموضوعية والدقة، فإنها أدت دورا مهما في استصدار كثير من المواقف والأحكام التي اتخذتها إنجلترا والإنجليز إزاء المغرب عبر التاريخ. كما أنها مازالت تمثل مصدرا لا غنى عنه للباحث والدارس في معرفة كثير من الجوانب المختلفة لتاريخ المغرب السياسي والثقافي والاجتماعي[6]. غير أن طبيعة هذه الكتابات كانت تتغير بتغير الظروف التاريخية والسياسة للبلدين وفي علاقاتهما كل منهما بالآخر بصفة عامة. ويمكن القول إن كتابات آرثر ليرد حول المغرب تندرج بشكل خاص في ذلك النمط من كتابات الرحلات التي ظهرت في القرن التاسع عشر وطبعته بطابع خاص، والتي تتميز عن سابقاتها بكونها «أكثر توثيقا، وأكثر علمية»[7]، مع ملامسة الجوانب الجغرافية للبلد تماشيا مع رغبة الأوروبيين «ربما لأهداف سياسية سرية»[8]، في استكشاف هذا البلد، واكتساب معرفة أكثر عمقا لثقافته ومؤهلاته الطبيعية. وهو ما يجعل هذه الكتابات تختلف كذلك عن كتب الرحلات – أو بالأحرى كتب الأسفار السياحية – التي ستأتي من بعد.

مَنْ آرثر ليرد؟

آرثر ليرد (1822 – 1879) طبيب إيرلندي، ولد بويكسفورد Wexford في الجنوب الشرقي من إيرلندا. ساهم في تطوير السماعة الطبية Stethoscope سنة 1851 عندما كان لايزال في دبلن، وذلك بتزويدها بمسماعين (عوض مسماع واحد كما كانت من قبل). كما أنه أصدر عدة كتابات عن «الدورة الدموية والجهاز الهضمي، ودراسات باللغة الإيسلندية حول المعالجة الطبية»[9]. زار إيسلندا عدة مرات في إطار أبحاثه الطبية. ونظرا إلى ارتباطه بالجمعية الجغرافية الملكية كطبيب وكعالم فإنه قرر أن يخوض هو كذلك غمار الرحلة إلى الشرق على غرار نظرائه البريطانيين في ذلك العصر. فقام برحلتين إلى المغرب: الأولى

سنة 1872، كان يرغب من خلالها لقاء السلطان المغربي في مراكش، لكنه لم يتحقق له ذلك بسبب الاضطرابات التي كانت تحدث آنذاك... أما الرحلة الثانية فقد قام بها سنة 1877 كطبيب مرافق لبعثة السفارة البرتغالية التي توجهت إلى فاس لتهنئة السلطان الحسن الأول بمناسبة اعتلائه العرش.

التعريف بالكتابين

أسفرت الرحلتان اللتان قام بهما آرثر ليرد إلى المغرب عن كتابين مهمين. صدر الأول المغرب والمغاربة. قصة الرحلة، مع وصف عام للبلد وسكانه [10] سنة 1876 بلندن، على أن تأليفه كان سنة 1875. يقع الكتاب في 370 صفحة من الحجم المتوسط. ويحتوي على مدخل و17 فصلا و7 ملاحق وفهرس للأسماء والمصطلحات. أما عن كلمة الإهداء فهي موجهة إلى موسى مونتيفيوري، أحد أقطاب اليهود البريطانيين، والذي سبق له أن زار المغرب في إطار المطالبة بتحسين أوضاع اليهود بالمغرب. غير أن الطبعة الثانية تم التصرف فيها بحيث جاءت مختلفة شيئا ما عن الطبعة الأولى. فقد جاءت - لسبب ما - خالية من الإهداء المذكور؛ وتحتوي على مقدمة إضافية لـ ريتشارد بورتن Richard Burton[11]، كما حذفت منها بعض الملاحق، فتم فيها الاقتصار على 3 ملاحق (عوض 7).

أما الكتاب الثاني، زيارة للبلاط المغربي[12]، فقد صدر في لندن سنة 1879، ويقع في 86 صفحة من الحجم المتوسط. وهو في الأصل عبارة عن محاضرة كان قد ألقاها آرثر ليرد في دبلن سنة 1878 أمام الجمعية البريطانية للتقدم العلمي[13]. في هذا الكتاب يصف آرثر ليرد الرحلة الثانية التي قام بها من طنجة إلى فاس سنة 1877 مع البعثة التي كان يقودها سفير البرتغال لتهنئة السلطان بمناسبة اعتلائه العرش. ويحتوي هذا الكتاب على ثلاثة فصول وخمسة ملاحق.

مضامين الكتاب الأول: المغرب والمغاربة (1876)

لا بد من الإشارة، بداية، إلى أن كلمة Moors التي يستعملها المؤلف في العنوان وفي الكتاب ككل، تعني ذلك المزيج من العرب (خاصة عرب الأندلس) والبربر، الذين يكونون غالبية الشعب المغربي. وبهذا فهم مختلفون عن العرب «الخُلَّص» والأمازيغ «الخلص». وقد تردد هذا المعنى في أغلب كتب الرحالة الإنجليز إلى المغرب. ومنهم من فصل في التمييز بين كل طائفة عرقية من الطوائف المكونة للنسيج الاجتماعي المغربي عبر العصور، والتي يمكن حصرها في العرب، والبربر، والأفارقة، واليهود، ومنهم من يضيف إليهم بعض العناصر الرومانية والوندالية التي تركت بصماتها السلالية في المغرب قبل الفتح الإسلامي.

ولعل التعريف الذي ينطبق أكثر على هذا الاستعمال الإنجليزي لكلمة Moor هو الذي قدمه رينيه باسي سنة 1901 عند تقديمه للأدب الموري (المغربي):

«تختص هذه التسمية كما يبدو بثلاثة شعوب مختلفة تمام الاختلاف من حيث الأصول: البربر، وعرب الغرب، ومسلمي إسبانيا، وهي شعوب منقسمة بشكل كبير بسبب الصراعات السياسية، ولكنها موحدة منذ القرنين السابع والثامن «الميلاديين تحت شرعها الديني»[14].

ولهذه الاعتبارات، فإننا ارتأينا ترجمة هذه الكلمة بالكلمة العربية: «مغربي»، تماشيا مع المعاني التي تغلب على المصطلح الإنجليزي «Moor» عند إطلاقه من طرف آرثر ليرد وأغلب الرحالة الإنجليز.

خصص المؤلف الفصول الاثنى عشر الأولى من الكتاب للمدن التي زارها ووصفها، وهي على التوالي: طنجة وناحيتها الجنوبية، والدار البيضاء، والجديدة (Mazagan)، والصويرة ونواحيها، ومراكش وضاحيتها، وآسفي، وآزمور، مع وصف للأماكن الأخرى التي شاهدها إبان تنقله برا من مدينة إلى أخرى. وقد ضمن هذا الوصف، بالإضافة إلى المشاهد الاجتماعية والمعمارية، بعض الملاحظات حول الجوانب التاريخية لكل مدينة، معتمدا في ذلك على مشاهداته وعلى كتابات من سبقه من الرحالة الإنجليز. أما الفصول الأخرى من 13 إلى 17 فقد خصصها لنظم المغرب السياسية والاقتصادية والإثنوغرافية، والاجتماعية، بالإضافة إلى الموارد الطبيعية والثرة الحيوانية والنباتية للبلاد. وفي الأخير ذيل المؤلف كتابه بسبعة ملاحق: الأول والثاني حول مناخ مدينتي طنجة والصويرة، والملحق الثالث حول الإحداثيات الجغرافية بين الصويرة ومراكش، والرابع حول التجارة في الغرب، والملحق الخامس حول الأدوية التي يستعملها المغاربة. والملحق السادس حول زواج شريف وزان، والملحق السابع والأخير حول قصة سقوط السيد باتلر في الأسر، كما سنرى ذلك بشيء من التفصيل.

ولكن في الطبعة الثانية من الكتاب، فإن ريتشارد بورتن، الذي حقق الكتاب وراجعه بطلب من أرملة الكاتب، حذف كل هذه الملاحق باستثناء الملحق الخاص بلائحة الأدوية المستعملة في المغرب. وأضاف إليه ملحقَين آخرَين: الأول حول الموقع الأثري لوليلي، والثاني حول جواز المرور الذي حصل عليه المؤلف من السلطان. وهما الملحقان اللذان صدرا من قبل في الكتاب الثاني لـ آرثر ليرد (زيارة للبلاط المغربي، 1879). وقد يستفاد من هذا التصرف من طرف المحقق – وهو مَن هو من حيث رسوخُ القدم في أدب الرحلات وفنون التأليف – أن الملاحق المحذوفة ربما لم تعد لها القيمة والراهنية أنفسهما اللتان كانتا لها من قبل، وإلا لكان المحقق أثبتها في الطبعة الثانية.

وفيما يلي عرض لبعض مشاهدات آرثر ليرد من خلال هذا الكتاب الأول، على أننا سنركز على لحظة اللقاء الأول؛ لأنها تمثل المحك الذي سيعرض عليه المؤلف أفكاره المسبقة وانتظاراته حول المغرب والمغاربة.

يفتتح المؤلف الفصل الأول بملاحظة أولية حول هذا البلد، وهي أنه على الرغم من «قرب المغرب النسبي من إنجلترا، فإن الجزء الداخلي من هذا البلد يبقى مجهولا إلى حد أبعد مما نعرفه عن بلدان بعيدة مثل الصين واليابان» (ص 1)، ثم سرعان ما يزول الوهم عند رؤية مدينة طنجة من داخل الأسوار، وذلك خلافا للهيبة التي توحي بها المدينة عند مشاهدتها من خارج الأسوار (ص 3). ثم يصور الرحالة كيف «بدأ التهافت على خدمته من طرف المغاربة، كما هي حال المجموعة من اليهود التي أسرعت «للقائنا حالما توقف مركبنا على الرصيف، ودخلوا في أشرس منافسة لعرض أي خدمات أو أعمال ممكنة (ص 3). وهكذا و«نظرا إلى أني أجنبي، أصبحت مركز الجلبة». ثم ينتقل المؤلف إلى وصف الجمارك في ميناء طنجة، «وبرغم التدقيق في الأمتعة، فإن العملية كانت تقام بأدب» (ص 4). وهنا التقى بدليله الحاج قدور ضمن المتهافتين على تقديم الخدمات والدلالة على أحسن الفنادق... وقد سمحت له الإقامة في فندق فكتوريا لبعض الأسابيع بالتعرف على المدينة (ص 4 و5).

يصف ليرد الفرق الذي غالبا ما يحس به الإنسان عند العبور من بلد إلى آخر، كما هو الشأن بين دوفر (Dover) وكالي (Calais)، ولكن الفرق في الجنوب يتضاعف عشر مرات.

وقبل وصف المدينة، يقوم آرثر برحلة عبر الزمن للتعريف بتاريخ طنجة، كما كان يعرفها الرومان، ثم القوط والمسلمون، ثم كيف أصبحت تحت سيطرة هذا الخليط من الأعراق المعروف لدينا بالمغاربة (Moors) (ص 5). والملاحظ هو أن آرثر ليرد في تأريخه للمدينة لم يبدأ إلا بالرومان؛ فلم يشر إلى من بنى طنجة قبلهم، وهو مما قد يكون انحيازا أوروبيا حتى في كتابة التاريخ. ومن خلال هذه النبذة التاريخية يشير إلى سقوط المدينة في يد البرتغال سنة 1471، وكيف سُلِّمت للإنجليز كجزء من صداق كاترين البرتغالية عند تزويجها من شارلز الثاني سنة 1662 (ص 5 و6). وهنا يسرد ليرد، بشيء من الإسهاب، تفاصيل هذه الصفقة كما وردت في مذكرات اللورد ساندويتش (1662) (ص 6 و7). ثم ينتقل إلى حادثة هجوم غيلان ورجاله على اللورد تيفيو Earl of Teviot والقضاء عليه بصحبة 19 ضابطا و200 رجل. ثم يورد تفاصيلها كما وصفها ساموبل بيبس Pepys بإسهاب في 1664 (ص 8). ثم كيف جرى التخلي عن طنجة من طرف الإنجليز بعد احتلال دام 22 سنة (ص 10) على الرغم من حيويتها الاستراتيجية بالنسبة إلى الإنجليز في أي مواجهة محتملة مع الإسبان.

بعد هذه التوطئة التاريخية، يقوم ليرد بوصف الجوانب المختلفة للمدينة المغربية؛ وفي كل حالة يعطي تفسيره وتعليقه الشخصي على كل ظاهرة؛ ففي وصفه المعمار المغربي بطنجة، يلاحظ ليرد كيف أن غيرة المسلمين على نسائهم تؤثر في أسلوب الهندسة لديهم. ولكنه في الآن ذاته يشير إلى أن «وسط الدار يحتوي على نافورة، كما أن شجرة التين غالبا ما تضفي ظلالا وارفة تقي من حر أشعة الشمس» (ص 12)، وهو ما لا يمكن تفسيره بالغيرة

على النساء فقط. أما تصريف المياه، وإن كان ناقصا، فإنه في حالة أحسن مما كان منتظرا، مشيرا كذلك إلى محاولة القناصل الحفاظ على نظافة الشوارع. أما صناديق القمامة، فإن السكان الأصليين للمغرب لا يعرفونها، بل يكتفون برمي فضالة الخضر وسُلابة الحيوانات في الشوارع. ولكن هذه القمامة يتم الآن التخلص منها على ظهور الحمير... (ص 12). كما أنه «من الصعب على أجنبي أن يجد طريقه في متاهة الأزقة والشوارع الضيقة، ولكن مع ذلك يتوافر أغنياء المغاربة واليهود على منازل جميلة وسط هذه الأماكن. فلا وجود لحي يهودي في طنجة، خلافا لما عليه الأمر في أغلب المدن المغربية. ولكن الإسرائيليين يعيشون بسلام وسط عموم السكان (ص 13).

تقع القصبة، أو القلعة، على مرتفع يشرف على مدينة طنجة بأكملها... وخلف أسوارها يوجد المسجد الكبير وحريم الباشا والسجن، وبيت المال (ص 14). ومن باب القصبة يبدو منظر المدينة غاية في الروعة. فتبدو المنازل ببياضها المشع، تتخللها هنا وهناك خضرة أشجار النخيل الوارفة (ص 15). أما مكتب البريد الذي هو فرع للمكتب الموجود في جبل طارق، فإن افتتاحه في المدينة في مارس 1873 كان، وفق المؤلف، أهم حدث في تاريخ طنجة، وفي تاريخ المغرب ككل. وهو ما يجعل طنجة الآن في اتصال دائم مع بقية العالم (ص 16).

أما على مستوى اللغات المتداولة في المغرب، فإن اللغة الإسبانية هي اللغة الأوروبية الأكثر انتشارا، أما «الإنجليزية فلا يتكلم بها إلا الوسطاء المرتبطون بالفنادق وعدد قليل من الناس» (ص 16). وبمناسبة الحديث عما هو أوروبي يصف ليرد الوجود الأوروبي وآثاره بالمدينة، فقد «ألقت أوروبا بظلالها على طنجة – التي ترزح تحتها – مما سمح بقوة التأثير الأوروبي في المدينة لدرجة أن المسيحيين، وعلى خلاف ما يحدث داخل المغرب، لا يتعرضون لأي شكل من أشكال السباب أو المضايقات. يمكن للإنسان «الأجنبي» أن يتجول قرير العين في كل المدينة وما جاورها، شريطة أن يحترم أفكار السكان، وعلى الخصوص شريطة ألا يتطفل أو يطلع أكثر من اللازم على أماكنهم المقدسة (المساجد)؛ فالمسلم هنا، على خلاف أخيه في تركيا، لم تسعفه حرارة إيمانه حتى بالسماح للكافر – وهو الاسم الذي يُطلق على الكافر المسيحي – أن يضع قدمه داخل حرم المسجد (ص 18).

وعند وصف بقايا المآثر الرومانية المتناثرة في المدينة وحولها (طنجة البالية)، يشير ليرد في الهامش السفلي إلى أن المغرب يكاد يكون بالنسبة إلى عالِم الآثار حقلا غير مستكشف تماما. ثم بعد ذلك يصف بعض حدائق طنجة، ويلاحظ أن أجملها على الإطلاق الحديقة السويدية، التي سُميت كذلك لأنها كانت من قبل مِلكا للقنصل السويدي (ص 19)، وكذلك الحديقة الهولندية. كما يلاحظ أن «أغلب العمال في الحديقة هم من جبال الريف. وعلى الرغم من عاداتهم الفظة عندما يكونون في أرضهم، فإنهم يصبحون خدما ممتازين وأمناء» (ص 20).

يوجد في طنجة عدد قليل من الحِرف والصناعات، كالدباغة. وعن أهم التجارات: يذكر البقر وحيويته بالنسبة إلى حامية جبل طارق. كما تُصدَّر كميات معتبرة من الدواجن والخضر والفواكه عبر المضيق (ص 20). أما مستوى العيش في طنجة فمتوسط، ولكن الأسعار ارتفعت أكثر من الضعف حاليا. ثم يسرد الكاتب قائمة بأسعار اللحوم الحمراء والبيضاء، وأسعار العمالة، مع الإشارة إلى ارتفاع أجور الذكور على أجور الإناث (ص 21).

قام ليرد صحبة دليله بزيارة إلى بعض المقاهي (ص 20)، مما أتاح له وصفها والتعليق على بعض المظاهر الأخرى من قبيل تناول الكحول من طرف بعض المغاربة: «إنه لمن المؤسف أن السكان صاروا يتعلمون تناول المشروبات الكحولية من جيرانهم. توجد بعض الدور للمسيحيين واليهود، حيث يباع بالتقسيط الكونياك الرديء وبعض المشروبات الأخرى...» (ص 21).

كان عدد سكان طنجة يُقدر في نوفمبر 1872 بـ 14600 نسمة، موزعين على الشكل التالي: 9000 مغربي، و5000 يهودي، و600 مسيحي. وبالنسبة إلى الديانة المسيحية «توجد بالمدينة كنيستان كاثوليكيتان، ودَير كبير، ومدرسة. ليس هناك مجال للعبادة البروتستانتية، ولكن إذا حدث وإن وُجِد قسيس في المدينة، فإن القُدّاس يُقام بالسفارة»، ونظرا إلى كثرة ممثلي الدول الأجنبية، فإنهم يستطيعون أن يشكلوا مجتمعا فيما بينهم. والدول الممثلة هي: بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا وألمانيا والنمسا والسويد والنرويج والولايات المتحدة (ص 22).

يذكر ليرد كيف زار بصحبة القنصل الأمريكي الكولونيل ماثيوس أمير وزان، الشريف الحاج عبدالسلام، من أجل الحصول على تزكية لدى السلطان الذي كان في طريقه إلى عاصمة الجنوب. وأجرى معه حوارا طويلا عبر واسطة ماثيوس. كما تسلم منه رسالة تزكية قيمة، موجهة إلى مولاي الحسن، ابن السلطان ووريثه (ص 24 و25). وبالمناسبة قام الرحالة بوصف شخصية شريف وزان من حيث الهندام والعادات الأوروبية والأثاث الأوروبي، وخدمه، وكيف أنه «أبدى تفضيله الإنجليز، من خلال رغبته في الحصول على زوجة إنجليزية» (ص 27).

وبعد الإشارة إلى حب المغاربة للعب البارود (ص 28)، حضر ليرد إلى إحدى هذه المشاهد التي انبهر بها ووصفها بدقة. كما لاحظ كثرة الزيجات بطنجة. فكان مناسبة لوصف حفل الزفاف المغربي، وموكب إيصال العروس إلى بيت العريس على الهودج (المحمول على بغل). ولكن وصفه لحفل الزفاف اليهودي كان بتفصيل أكثر «لأن اليهود لا يعترضون على حضور الأجنبي» (ص 31). ومن بين الطقوس التي أشار إليها في معرض وصفه هذا الحفل: اشتراك المغاربة (المسلمين) مع اليهود في الاحتفال، خاصة بالزغاريد التي تطلقها النساء (المغربيات

واليهوديات) عند لحظة ذبح العجل. ويتضح من خلال الجُمل التي نقلها ليرد عن اليهود أنهم كانوا يتكلمون اللغة العربية المغربية، مع تأثير اللكنة اليهودية، كإقلاب الجيم زايا في قولهم: ‘Allah ma’ Tazar flà bus fla’ (الله مع التاجر فلان بن فلان) (ص 32). وبالنظر إلى هذه الطقوس اليهودية، يتضح للقارئ المغربي، كذلك، أنها هي نفسها طقوس الزفاف المغربي من أوله إلى آخره (مع استثناء بعض الطقوس القليلة المرتبطة بالدين اليهودي كحضور الكنيس، وتسلُّم العروسين كأس الشراب «المبارك» من طرف الحاخام (ص36 و37)، ما يعني أن اليهود قد تشربوا العادات المغربية لدرجة أنهم «تمغربوا» - إن صح التعبير - فتماهت ثقافتهم مع ثقافة المغاربة لطول عيشهم عبر القرون في هذا البلد. كما يلاحَظ حرص الرحالة على شرح الجوانب الرمزية لكل الطقوس المصاحبة لهذا الزفاف.

ونظرا إلى شخصية الرحالة وثقافته الطبية، فإن الكتاب يحفل بالملاحظات الطبية، كما هو الشأن عند وصوله أول مرة إلى طنجة، واستغرابه كيف أن المغرب من الناحية الطبية «متقدم بشكل كاف لتقدير الصحة، نظرا إلى اقتراب قارب الحجر الصحي من مركبنا بمجرد وصولنا» (ص 3)، وعند حديثه عن مناخ مدينة طنجة، فقد وجده «جد معتدل وممتع، مما يجعله جد ملائم للذين يعانون الأمراض الصدرية» (ص 22). وفي أثناء وصفه جبل «واشنطن» الموجود على بعد ثلاثة أميال من طنجة، والذي يسمح بإطلالة على المضيق والساحل، قال بأنه «مع ما يمنحه من مشاهد روعة في الجمال ومن هواء نقي وجو لطيف، يمثل موقعا رائعا لمستشفى شتوي» (ص 39).

وقبل الانتقال إلى مضامين الفصل الثاني، لا بد من إبداء الملاحظة التالية: إذ يتضح من جملة المشاهدات والأوصاف الدقيقة التي قدمها آرثر ليرد عن طنجة وسكانها أنهم لم يكونوا يعانون ضيق العيش أو الكآبة التي تسيطر على الشعب الذي يعيش تحت ظل خطر الاحتلال الأجنبي. بل يسود الانطباع أن السكان كانوا يعيشون أسيادا على أرضهم، وأن ممثلي الدول الأجنبية لم يكونوا يتمتعون بسلطة تذكر - على الأقل في زمن رحلة ليرد - وأن الناس كانوا يتنعمون إلى حد ما برغد العيش، وبسعادة كبيرة تبدو من خلال حبهم الحياة واللعب والمرح، كما كان لهم إحساس جد ملموس بالأنفة والغيرة على مساجدهم ونسائهم وثقافتهم، مع تسامحهم الكبير مع ذوي الديانات الأخرى، يهودا كانوا أو مسيحيين.

في الفصل الثاني من الكتاب يصف آرثر ليرد الجولة القصيرة التي قام بها صحبة حارسه وترجمانه قدّور في الضاحية الجنوبية لطنجة، تحت حماية أحد الجنود، ومستعينا بمضغاطه لقياس ضغط الجو وعلو الأرض عن سطح البحر (ص 41)، ولذلك فإنه غالبا ما يرى الأشياء ويفهمها من خلال شروح الدليل قدور، فالتلال المحيطة بطنجة. على سبيل المثال. هي ملاذ الخارجين على القانون.

لما نزل ليرد وصحبه في ضيافة الشيخ بوسلهام، فإن هذا الأخير لم يدخر جهدا في إكرامهم، بتوفير خيمة خاصة للمبيت والعشاء، ومع ذلك فإن ليرد لم يملك نفسه من التهكم من سذاجة الشيخ، ومن التذمر من بعض الأمور التي كانت «أكثر همجية» من أن يتقبلها «فبسبب انعدام الملح، أحضر حميد، ابن الشيخ، شيئا قذرا وغليظا مثل الحصى، ثم وضعه بيده المتسخة في يد والده لتصبح قارورة الملح خاصتي» (ص 44).

وكان من بين أهداف هذه الرحلة القصيرة، خارج طنجة، مشاهدة سمك الشبل في واد مطهر، وهنا يتجلى أحد الأمثلة عن وضع الدليل قدّور في موضع الإنسان الذي يشرح أمورا لمن هو أعلم بها منه (أي للرحالة) «قال قدور إن السمك يطير من الماء لأنه يتصارع مع غيره». ثم يُعَقِّب ليرد على «الشرح» قائلا: «لا يعرف العرب إلا القليل عن هاته الأمور، ولا يهتمون بها» (ص 46). ثم يشرح المؤلف كيف أن السمك إنما كان يطير من الماء ليتتبع الذبابة التي كان يستعملها الرحالة طعما في الصيد. يتضح من هذا المثال، كما في غيره، أن بلادة قدور تعكس بلادة العرب، كما لو كان الدليل (قدور) يمثل كل العرب، وليرد يمثل كل الإنجليز؛ فيخرج القارئ (الإنجليزي) من مثل هذه المواقف بالانطباع أن الأمتين غير متكافئتين في فهم الأمور البديهية، مع أن الأمر يتعلق في واقع الأمر بمقارنة غير متكافئة بين عالم من حجم ليرد وبين دليله البسيط.

وصف المؤلف كذلك الكُتّاب القرآني الذي يتكون من حوالي 6 أطفال تحت رقابة المعلم الذي يحمل العصا وعلى أهبة الاستعداد لمعاقبة أي شرود من جانب تلاميذه... الذين يتناوبون على لوحة واحدة للقراءة... (ص 48)، كما اتضح له أن المسجد يُستعمل لعدة مهام، إلى جانب الأمور التعبدية. فهو يتحول إلى دار البلدية حين يجتمع أهل القرية لمناقشة شؤونهم، كما يستعمله الشيخ مكانا لتغيير ملابسه... (ص 50).

وعند حديثه عن اضطهاد المغاربة لليهود، فإن الرحالة لم يعط ولو مثالا واحدا شاهده بأم عينيه. أما المثال الوحيد الذي ساقه، فإنه مجرد خبر سمعه، لدى عودته إلى طنجة، من رجل يحمل بضاعة من أصيلا «أخبرنا أنه يوما قبل أن يغادر أصيلا وقعت حادثة أليمة؛ فقد شوهد ولد يهودي من طرف بعض المغاربة المتشددين وهو يشرب من عين مقدسة، فقتلوه ذبحا في الحين»، ولئن كان ليرد غالبا ما يتردد في قبول أقوال المغاربة، ويضعها على محك علمه، فإنه في هذه الحالة، بالذات، أخذ الخبر مأخذ الجد، كما لو رأى الحادث بأم عينيه، ثم عقّب عليه في الحين قائلا: «هذا شيء كثير عن حرية التصرف في بلد لا يُعرف فيه وجود لضُباط المباحث ولا لهيئات المحلفين» (ص 50).

ثم يخصص الفصول الأربعة الموالية (3 إلى 6) لمدن الدار البيضاء والجديدة والصويرة وناحيتها، يعطي في كل حالة الموقـع الجغرافي للمدينـة، ونبـذة تاريخيـة عنهـا خاصـة في

علاقاتها مع الوجود الأوروبي، ثم يصف معمارها ونشاطها التجاري، مع الإشارة إلى بعض الأحداث التي تقع للرحالة ومن معه.

وبعد وصف الرحلة من الصويرة إلى مراكش (الفصل السابع)، فإنه يخصص لهذه المدينة وحدها فصلين طويلين (8 و9)؛ نظرا إلى كونها حاضرة المغرب الكبيرة وعاصمة السلطان والمقصد الأساسي للرحالة. وقد وصفها بشكل مستفيض من جميع النواحي، بما في ذلك الحمامات والسجون، مركزا منذ البداية على الطبيعة العدوانية لمغاربة الداخل إزاء كل ما هو أوروبي ومسيحي. ويذهب به هذا الرهاب إلى حد اتهام مضيفيه المغاربة بمحاولة اغتياله وصحبه الأوروبيين بوضع السم لهم في الطعام. والهدف من هذه المحاولة – وفق المؤلف – هو سعي عصبة من المراكشيين (الموالين لـ ابن داود) إلى إحراج السلطان أمام الإنجليز عند وصوله إلى مراكش، مما سيتسبب في غضبه الشديد على منافسهم الكروي (الكلاوي) في المدينة (ص 152 و153).

وعند التأريخ لمدينة مراكش، كعادته مع المدن الأخرى، فإن سرده لا يخلو من بعض الإضافات التي تزيد من ازدراء القارئ للمغاربة؛ فعلى سبيل المثال، عند الحديث عمن بنى مراكش، فإنه يذكر أن «أحدا اسمه سيد يوسف بن تاشفين بنى مسجدا وقلعة لحفظ ثروته، ثم قام أتباعه وكثير من سكان النواحي ببناء منازلهم حولهما، سعيا منهم وراء الحماية التي توفرها هذه القلعة... » (ص 157). ولكن وصفه لا يخلو من أهمية، على الرغم من اعتماده، في بعض الأحيان، على غيره في توفير بعض المعطيات، كما هو الشأن عند الحديث عن العدد الإجمالي لسكان مراكش. فبالاعتماد على المعطيات الإحصائية التي قدمها لامبير Lam-bert، فإنه يستخرج عدد سكان مدينة مراكش من خلال إحصاء أعداد الحرفيين والعمال والتجار والعساكر والمخزن، والعمال والمتسولين والفقراء، كل فئة على حدة. وهو ما يقدر بحوالي 16450، يضاف إليهم، وفق لامبير، عدد مماثل من النساء، وعدد مماثل من الأطفال، وحوالي 6 آلاف من اليهود، مما يجعل العدد الإجمالي لسكان مراكش، وفق لامبير وليرد، هو 55 ألف نسمة (ص 182 و183). يمكن بطبيعة الحال تقديم مجموعة من الاعتراضات على هذا العدد وعلى الطريقة التي تم بها استخراج العدد الإجمالي لسكان المدينة ككل، ولكن إحصاء كهذا لا تَخفى أهميتُه، خاصة مع ندرة – إن لم نقل غياب – مثل هذه المعطيات في المصادر والوثائق المغربية المختلفة. ولم تسلم من هذا الوصف بعض الظواهر الاجتماعية، كالسرقة التي يعتبرها «أحد جوانب الحضارة الأوروبية الذي له مرادفه في هذه المدينة». ثم يذكر أنواع اللصوص وتقنياتهم ووسائلهم، مع مقارنتهم بـ «إخوانهم» في لندن (ص 184).

وفي الفصول الثلاثة الموالية (10 إلى 12) يصف ما شاهده في رحلة العودة، مع وصف مهم لمدينة آسفي التي يقدِّر عددَ سكانها آنذاك بـ 8 آلاف نسمة؛ ويشيد أيما إشادة بجمال

وروعة حدائق الزهور والورود المغربية، التي تفوق بحجمها وقيمتها حدائق دمشق وحوض المكسيك، محيلا في ذلك على مقالات بمجلة The Garden (ص 203). وقد حصل الرحالة على عينة نادرة من زهرة النرجس. وهي التي أخذها وتم استنباتها فيما بعد في حدائق كيو الملكية بلندن (Royal Gardens، Kew) (ص 200 و201).

وابتداء من الفصل الثالث عشر، ينتقل الرحالة إلى الحديث عن حالة المغرب الآنية (أي المعاصرة للمؤلف)، فهو يخصص هذا الفصل الطويل للإحداثيات الجغرافية للبلد، ونظام الحكم، والبنية السكانية للبلد، من حيث الأعراق والأجناس وألوان البشرة، واللباس والحلي، والأفراح، والطبخ، والشاي، وبعض الظواهر الاجتماعية والأخلاقية من قبيل تناول مخدر الكيف؛ ففي تعريفه للتركيبة الديموغرافية للمغاربة، وباستثناء الزنوج واليهود، يقسم المغاربة إلى ثلاثة عناصر: العرب وهم القادمون من الصحراء؛ والموريون (Moors)، وهم الأحفاد «المنحطون» لأولئك العرب الذين احتلوا في السابق جزءا كبيرا من إسبانيا بعدما أقاموا مملكة قوية بفاس؛ ثم البربر بفئتيهم: بربر الريف وبربر الشلوح. ثم يعطي خصائص كل عنصر من حيث العرق ولون البشرة والسحنة والأخلاق والعلاقات الاجتماعية. مع الإشارة في البداية إلى أنه يطلق اسم المغاربة (Moors) على كل هذه الفئات من أجل التبسيط. (ص214 – 216)، كما لا يخلو الوصف من حيز للمرأة المغربية، ويخص منها بالجمال نساء مكناس، حيث يَعتبرهن «أجمل نساء المغرب، لدرجة أن تسمية «مكناسية» تطلق على المرأة الجميلة» (ص 219). أما عن أصل اليهود المغاربة، فهم «الذين طُردوا من أوروبا على فترات مختلفة، ووجدوا ملجأ في هذا البلد... ولكن أصل أغلبهم هم الإسرائيليون الذين طُردوا من إسبانيا سنة 1492 ومن البرتغال سنة 1496» (ص 220). وعند الحديث عن زنوج المغرب يشير إلى أن «عقيدة المساواة الإسلامية» (ص 219) قد ساهمت في ظهور خصائص الزنوج بين المغاربة هنا وهناك. كما أنه في مقارنته بين وضعية الرقيق في بالمغرب وأوضاعهم بين المسيحيين، يخلص إلى أنه في مقابل حرص من يسمون مسيحيين على أكبر قدر ممكن من الخدمة والعمل، فإن أتباع محمد ﷺ يتبنون الرقيق داخل الأسرة، ليعيش في مساواة تامة مع بقية أفرادها. وهو يحظى بالتعليم، على الأقل فيما يخص الواجبات الدينية. كما أنه يحصل على غذاء ولباس جيدين... وإذا كان الرقيق في المغرب مرغما على أن يخدم سيده، فإنها ليست خدمة كذلك العمل الشاق الذي يوصف عند الحديث عن مزارع قصب السكر بجزر الهند الغربية (West Indies) أو بحقول القطن الأمريكية... (ص 226 و227).

ومن الأمور التي استغرب منها ليرد لدرجة كبيرة، «حيوية المغاربة وروح الدعابة لدى الطبقات السفلى منهم، فهم وفق المؤلف «إيرلنديو أفريقيا. فكما هو الشأن بالنسبة إلى عنصر السيلت الإيرلندي (Irish Celt)، فإن عصورا طويلة من الاضطهاد والجور والفقر،

والتي مازال المغربي لم يخرج منها، لم تكن كافية لقتل روح الدعابة لديه وميله إلى رؤية الأشياء من زواياها المضحكة» (ص 225).

أما عن استعمال البخار فهو «عندنا من الإضافات المتأخرة نسبيا، بينما استعمل المغاربة هذه الطريقة منذ أزمنة بعيدة في تحضير أكلتهم الوطنية». يقصد بذلك الكسكسي. ثم يعطي وصفا دقيقا للقدر والكسكاس، معتمدا في ذلك على ما كتبه ديفيد أوركوهارت David Urquhart من قبل (ص 233).

وفي الفصل الرابع عشر يبسط آرثر ليرد الحديث عن نظام الحكم والقانون والقوة العسكرية للبلد. ويبدو أنه عندما لا يعتمد على المراجع في بعض المسائل، فإنه يخبط خبط عشواء، فهو على سبيل المثال، يعطي لائحة بسبعة مواقيت للصلاة، عوض خمسة (ص 266)، أو تراه يرصد بعض المعتقدات الشعبية لبسطاء الناس ثم ينسبها إلى كل المغاربة، كادعائه أن «الناس يؤمنون بأن نهاية العالم ستكون سنة 1300، أي ما يعادل سنة 1883» (ص 271). وبعد ذلك خصص المؤلف الفصل الخامس عشر للتعليم والدين والخرافات والطب؛ كما تناول في الفصل السادس عشر الفلاحة وتربية المواشي والصناعات وسك النقود بالمغرب؛ وفي الفصل السابع عشر تطرق إلى الثروة الحيوانية التي يزخر بها البلد، مع الإشارة إلى أنواع الصيد التي يمارسها المغاربة.

بالإضافة إلى هذه الفصول، ضمَّن المؤلف كتابه سبعة ملاحق مرقمة بالأحرف الهجائية، ففي الملحقين الأول (A) والثاني (B)، يعطى المؤلف نظرة عن مناخ مدينتي طنجة والصويرة. أما الملحق الثالث (C) فهو عبارة عن تبيان للإحداثيات الجغرافية من حيث الأبعاد والارتفاع، لعدة أماكن ما بين مدينتي الصويرة ومراكش. وقد استعان في هذه المهمة بآلة المضغاط لقياس علو الأرض عن سطح البحر، وهو مقياس صُنع له خصيصا لهذه المهمة من طرف أصدقائه في الجمعية الجغرافية الملكية The Royal Geographical Society (ص 333).

وفي الملحق الرابع (D)، يعطي المؤلف تقريرا عن التجارة المغربية، مع التركيز على وضعية التجار البريطانيين في المغرب، فهو ينقل تذمرهم من الوضع الذي آلت إليه تجارتهم بسبب سوء تمثيلهم من طرف القنصليات البريطانية في حالات النزاع مع المغاربة، مقارنة مع ما يتمتع به التجار الأوروبيون الآخرون من امتيازات وحماية لدى قناصلهم وكذلك التجار المغاربة واليهود لدى حكومتهم المغربية (ص 335)، وهو من خلال هذه الملاحظات، وكذلك من خلال حواراته مع التجار الإنجليز، يطالب الحكومة الإنجليزية بتحرير أكثر للتجارة في المغرب، وبالضغط على السلطان لإعادة النظر في نظام الحماية (ص 336). غير أن المؤلف لا ينقل تذمر هؤلاء التجار من دون الإشارة إلى أن هذا الكلام ليس كله صحيحا، بل فيه ما يؤخذ وما يُردّ. يعطي على ذلك مثلا نسبة الفوائد المرتفعة جدا التي كان التجار الإنجليز يشترطون

أن تُدفع سلفا من طرف شركائهم المغاربة في مشاريع زراعة القطن (ص 337). ثم يشير المؤلف إلى معاهدة 1856 وانعكاساتها الإيجابية على حجم المبادلات المغربية الإنجليزية، باستثناء القمح والشعير اللذين أمر السلطان بعدم تصديرهما إلى بريطانيا وجبل طارق بسبب الجفاف. وقد اعتمد المؤلف في سرد المعطيات التجارية بالأرقام على تقرير القنصل البريطاني في طنجة، المؤرَّخ بـ 19 نوفمبر 1872، والذي خُتم بالتأكيد على أنه «لم يعد هناك أمل في انتظار أي إصلاحات في الحكومة «المغربية»، أو أي توسيع يُذكر في التجارة، أو أي إدخال للحضارة إلى هذا البلد» (ص 339). وبعد عرض لجداول المبادلات التجارية بين البلدين، يعطي التقرير لمحة عن النقود المغربية المستعملة وأسعار بعض المواد، وكذلك لائحة للأوزان التي يستعملها المغاربة في مختلف معاملاتهم التجارية (كالمثقال والأوقية والقنطار والرطل والقلة والعبرة والكالة والقامة)، وما يقابلها من الأوزان الإنجليزية (ducat, ounce, quintal, pound, gallon, fanega, yard, fathom) (ص 343 و344).

وفي الملحق الخامس (E) يعرض المؤلف لائحة طويلة بأسماء 66 من الأدوية التي كان يستعملها المغاربة. وقسمها إلى ستة أقسام وفق مصادرها: فذكر 24 دواء مشتقا من مختلف الأوراق والزهور والنباتات (كـ البقل والغسول والشيح وإكليل الجبل)؛ ثم ذكر 14 دواء مشتقا من الفواكه والبذور (كـ الحلبة والكروية وأركان)؛ و18 دواء مشتقا من الجذور (كعرق السوس والبُكبوكة والدَّاد)؛ ودواءين من الجذوع (هما الضرو والسّواك)؛ وثلاثة أدوية للارتشاح (هي النُّشادر الصمغي ونبتة الشعرور و«علك الإبتوم» الذي يستخرج منه الراتنج)؛ و5 مستحضرات غير مصنفة، مشتقة من نباتات مختلفة (مثل شقائق النعمان وماء الزهر)، أو من الحيوان كالعنبر الحر. وكعادة آرثر ليرد في حديثه عن منجزات المغاربة، فإنه إذا وجد شيئا جديرا بالمدح لا يمدحه تماما، بل يستغرب من وجوده بين المغاربة، كما هو شأنه مع الإبريق المستعمل في تحضير ماء الزهر، فبعد أن وصفه وصفا دقيقا، قال بلغة المتعجب (وليس المُعجَب): «إنه لأمر غريب أن تجد مثل هذه الآنية الغريبة الشكل والمتقنة الصنع، وربما المصنوعة من نحاس البلد، أن تجدها مستعملة بهذه الطريقة وفي هذه البلاد البدائية» (ص 359). فاستغراب المؤلف واستعماله لكلمة «ربما» يلقيان ظلا خفيفا من الشك على قدرة أهل هذه البلاد غير المهذبة على صنع آنية ظريفة كهذه واستعمالها.

ومن بين الأخطاء التي وردت في هذا التقرير الصيدلي، وهو الأمر الذي استدركه عليه صديقه ريتشارد بورتن في الطبعة الثانية (1891)، تصنيفُه الداد ضمن الجذور «المجهولة النوع»، ثم قوله:

«إن أوراق الجذور تبين بلا شك أن الداد جذر لنوع من أنواع الشوك» (1876، ص 354).

أما في الطبعة الثانية، فعوض التنبيه على هذا الخطأ، تصرف ريتشارد بورتن في المتن،

فجاءت النبتةُ مصنفة ضمن الجذور «المركبة»، كما أن الجملة المذكورة آنفا جاءت على الشكل التالي:

«إن أوراق الجذور تبين بلا شك أن الداد جذر لنوع من الأنواع المُركَّبة» (1891، ص 341).

في الملحق السادس (F)، ينتقل المؤلف إلى وصف حفل زفاف شريف وزان، والذي تم بتاريخ 17 مارس 1873، في البداية بمقر المفوضية البريطانية بطنجة بحضور جون دراموند هاي وأعضاء السلك الديبلوماسي وأقارب العروس الإنجليزية (Emily Keene)، التي كانت ترتدي ملابسها الإنجليزية (وليست المغربية). ذلك أن الاتفاق تم بين الطرفين على أن تحتفظ الزوجة بكل عادات بلدها وبمزاولة ديانتها الأصلية ككتابية، ثم بعد ذلك أقيمت مراسم الاحتفال على الطريقة المغربية، في بيت الشريف لمدة سبعة أيام. وقد خصص آرثر ليرد لكل يوم نوعا من الضيوف والأحباب: فاليوم الأول للباشا والقايد والأعيان؛ واليوم الثاني للعب البارود؛ واليوم الثالث للنساء المغربيات؛ واليوم الرابع للخادمات والإماء اللواتي كن يقطن بالجوار؛ واليوم الخامس لسكان البوادي، مصحوبين بمختلف الهدايا؛ واليوم السادس خصص لاحتفال «السكان السود» و«الزنوج» بصنوجهم (ص 362)، ثم اختُتمت الاحتفالات في اليوم السابع بحفل كبير لكل فقراء المدينة ونواحيها. وخَتم المؤلف هذا الملحق بالحديث عن إكرام شريف وزان للفقراء، وإيوائه لبني السبيل والمسافرين، ونصرته للمظلومين والمستضعفين من العبيد وغيرهم.

أما الملحق السابع (G)، فيخصصه المؤلف لقصة سقوط السيد باتلر Butler، الإيرلندي الأصل والإسباني الجنسية، في الأسر تحت يد حبيب بن مبارك، شيخ واد نون بالناحية الجنوبية لسوس، ومعاناته الشديدة من جراء ذلك، ثم فكاكه من طرف الإنجليز مقابل فدية مالية كبيرة. وبما أن القصة يرجع تاريخها إلى منتصف الستينيات من القرن التاسع عشر، أي حوالي سبع سنوات قبل الرحلة الأولى لـ آرثر ليرد إلى المغرب، فإن هذا الأخير يروي القصة كما سمعها من أخ الأسير وصديقه بآسفي. ولكنها لا تخلو من إضافاته وتوصياته. فهو يفتتحها بالحديث عن الشهرة التي حظي بها المغاربة بين المسيحيين في مجال القرصنة واستعباد الأسارى الذين يقعون في أيديهم عند غرق مراكبهم أو تحطمها قبالة السواحل المغربية. وعلى الرغم من كثرة الأمثلة على هذه الظاهرة التي اختلط فيها الجهاد البحري بالقرصنة، فإن آرثر ليرد لم يجد إلا مثلا واحدا هو روبنسون كروسو Robinson Crusoe الذي قال عنه المؤلف إنه أُسر بمدينة سلا، من دون أن يشير إلى أن هذا المغامر ليس إلا شخصية خيالية من نسج الأديب دانييل ديفو Daniel Defoe. كما أن آرثر ليرد في ختام هذه القصة المملوءة بالتحسر على السلطة التي يحظى بها شيخ واد نون بين القبائل العربية في الصحراء، ينبه إلى أن غمر جزء من هذه الصحراء بالماء سيحد من سلطة هذا الشيخ

كما تَصور ذلك السيد ماكنزي بمهارة عالية» (ص 365). وفي هذا إشارة إلى خطة دونالد ماكينزي Donald Mackenzie التي اقترح بموجبها غمرَ جزءٍ من صحراء المغرب (قبالة جزر الكناري) بمياه المحيط الأطلسي من أجل فتح وسط أفريقيا «للتجارة والحضارة» عبر ساحلها الشمالي الغربي[15]. وقد فتح ماكينزي فعلا مركزا تجاريا برأس جوبي سنة 1878 (أي بعد سنتين من صدور كتاب ليرد)، لكن هذا المركز لم يعمر طويلا، وتم التخلي عن الفكرة برمتها. ولعل الطابع الصحافي والظرفي لهذا الملحق الأخير من كتاب آرثر ليرد والأخطاء الواردة فيه هي بعض العوامل التي جعلت المحقق ريتشارد بورتن يحذفه من الطبعة الثانية للكتاب.

مضامين الكتاب الثاني: زيارة إلى البلاط المغربي (1879)

هذا الكتاب الثاني، والصغير الحجم، هو بتعبير المؤلف «سرد للأحداث في رحلة إلى إحدى المناطق الأقل زيارة في العالم، وتسجيل لما شاهدتُه في بلاطٍ ومحيطه، حيث تمتزج الأبهة والهمجية بشكل غريب»[16]. ولعل هذا الوصف الأخير هو أبلغ تعبيرٍ عن الأسلوب الذي سينهجه المؤلف في كتابه. فهو لا يكاد يصف مشهدا قد ينطوي على بعض «الأبهة» التي كانت سائدة في كل بلاطات الأمم في القرن التاسع عشر (في أوروبا كما في الدول الأخرى) حتى يعقبه بوصف يضفي قدرا غير قليل من «الهمجية» على هذا المشهد؛ وهكذا تترسخ في ذهن القارئ الأوروبي الصور الهمجية، الواحدة تلو الأخرى، وتلتصق بالمغرب والمغاربة. وقد اتبع المؤلف المنهج الوصفي نفسه، والطريقة في التأليف التي سار عليها في الفصول الأولى من الكتاب الأول. ولكنه لم يضِف إليها فصولا خاصة بالنظم السياسية والثقافية والاجتماعية للمغرب. ولهذا جاء الكتاب في ثلاثة فصول فقط وخمسة ملاحق.

فالفصل الأول من الكتاب خصصه المؤلف لرحلة الذهاب، انطلاقا من طنجة، يوم 21 مايو 1877، ومرورا بمدن القصر الكبير وزرهون، ثم وصولا إلى «قصر فرعون» (وليلي) على مشارف مدينة مكناس. فهو يصف المشاهد التي رآها بالمدن التي زارها، وكذلك مشاهداته في أثناء الانتقال من مدينة إلى أخرى، ثم يُعقب على كل حدث بملاحظاته الخاصة. كما هي الحال بالنسبة إلى لعب البارود. فقد وصفه وصفا دقيقا، ثم تبرم من تكراره في كل حل وترحال، ولسان حاله يقول إن المغاربة لا همَّ لهم إلا اللعب. وهو وإن كان يعترف بأن مرافقي البعثة السفارية من المغاربة كانوا يحرصون على الترويح على أعضاء البعثة بلعب البارود، فإن وصف ليرد للأمر ينطوي على بعض التهكم:

«في أثناء تقدمنا، كان حراسنا المغاربة يشرفوننا كل يوم بلعب البارود؛ عندما كانت تسمح الأرضية بذلك، فإن اللعب لم يكن يكاد يتوقف. كان غالبا ما يبدأ قبل طلوع النهار،

وغالبا ما ينتهي بعد الغروب، عند جلوسنا لتناول وجبة العشاء في خيمتنا. لقد كان مشهدا لطيفا أن ترى 10 أو 12 مغربيا مندفعين في آن واحد، وفرسانهم الصغيرة الجموحة تشد أعصابها وعضلاتها، والتي يبدو أنها تتمتع بالعرض تماما كالفرسان. كانت ملابس الرجال ممتلئة بالنسيم، وأعينهم تقذف النار عندما كانوا يلوحون ببنادقهم ويلقون بها في الهواء، ثم بصرخة مؤثرة وهائجة واحدة (وهي دعاء لله بأن يوجه رصاصاتهم إلى قلوب أعدائهم) يُفرغون بنادقهم في وقت واحد، ثم يكبحون جيادهم، ويرجعون فجأة»[17].

وكما يبدو من هذا النص، وما يعقبه من تعليقات، فإن محاولة المغاربة لـ «تشريف» الضيوف - أعضاء البعثة السفارية - لم تشفع لهم لدى المؤلف، فلا تراه إلا متهكما منهم. فحتى صرختهم في اللعب أعطى لها المؤلف تفسيرا فيه من إثارة لحفيظة القارئ الأوروبي ما لا يخفى. وعلى كل حال، تبقى هذه الملاحظة التي أوردها المؤلف في ثنايا هذا الوصف هينة إلى حد بعيد عندما تقارن بكثير من تعليقاته على هؤلاء المغاربة. فهو وإن كانت رحلاته قد سمحت له - كما قال في مقدمة هذا الكتاب - بالتعرف، أكثر من أي وقت مضى «على الحياة في هذا البلد وعلى تقاليده»[18]، تراه يصف المغاربة بأبشع الأوصاف وأحقرها. ومن مظاهر هذا الازدراء ما قاله في معرض حديثه عن علاقته بكلب الصيد الإسباني نيلو Nilo[*]، والذي صار صاحبا وفيا له، فقد أصيب الكلب في رجله بسقوط أحد أعمدة الخيام عليه، فقام آرثر ليرد بمداواته، ثم تركه في عهدة «رجل أسود» فلم يهتم به كما ينبغي، ثم تُرك لمغربي للاعتناء به ريثما يعود الركب في رحلة الإياب. وفعلا عاد الركب ووُجد الكلب في أحسن حال:

«حالما تم إطلاق الكلب، الذي يبدو الآن شبه معافى، جاء وجلس في خيمتي، وهو يبصبص بذيله، وينظر إلي، كأنه يريد أن يقول (وهذا ما كنت أشعر به بالتأكيد): «أنا وفيٌّ لك، وقد جئت لأراك أنت أولا». ومنذ ذلك الحين أصبحنا، أنا ونيلو، صديقين وفيين. إن الإنسان ليُدفع إلى أن يقول كما قال الفرنسي الوقح: «كلما ازددت معرفة بالرجال، ازددت إعجابا بالكلاب»[19].

أما المصطلحات العنصرية التي طبعت بعض كتابات العصر الفيكتوري (نسبة إلى فترة حكم الملكة فيكتوريا 1837 - 1901)، فإن رحالتنا يستعملها بشكل تلقائي ولا يقوم بأي شيء للتخفيف من وقعها. فهو لا يتحرج من وصف الرجل الأسود بكلمة Negro (ص 17)، بعد أن كان يسميه «رجلا أسودا» (ص 16). كما أنه في سياق آخر عندما يتبرم من تصرفات المغاربة، يعلق عليهم بقوله: «إن حادثة وقعت هذا المساء تُبرز على نحو لافت للنظر عادات هذا العرق السامي وحالته الذهنية... » (ص 10).

(*) Nilo: هو اسم الكلب الإسباني الذي كان خاصا بالقنصل البرتغالي.

وبما أن أغلب الرحالة يتطلعون إلى وصف «الحريم»، ويقصدون بذلك الحريم الملكي بالذات، فإن آرثر ليرد لم يتسن له الاطلاع على هذا الحريم. وبدل ذلك، وصف حريم الوزير وصفا مقتضبا، ولكن بأعين زوجته والنساء المرافقات للبعثة ص 15). كما سنحت له الفرصة كذلك بزيارة حريم والي منطقة زاكوطة من أجل التطبيب، فكانت فرصة للوصف من الداخل، كأنه قد ظفر برؤية «الحريم» اللاتي طالما تفنن الرحالة في وصفهن أو تصورهن. أما في حالة آرثر ليرد، فإنه لم يجد الشيء الكثير لوصفه، فجاءت الصورة مقتضبة ومخالفة للصورة النمطية للحريم: فالنساء غير جميلات، بل هن سمينات، لأن السمنة في أعين المغاربة سترة تخفي كثيرا من العيوب (ص 19).

وخُصِّص الفصل الثاني لوصف مدينة مكناس والقصر الملكي بها، بما في ذلك تفاصيل استقبال أعضاء البعثة وردهات القصر والحدائق التابعة له. وهو في أثناء الوصف قد يقف عند إحدى الجوانب التاريخية أو الاجتماعية أو السياسية أو الحضارية، ويحاول شرحها أو تتبع جذورها، بناء على ما أخبره به مترجموه أو مرافقوه، أو من خلال تفسيره الخاص للأمور. فهو على سبيل المثال- عند حديثه عن الحرب التي كان يخوضها الأتراك ضد الروس - يستنتج أن المغاربة لا يهتمون بتاتا بهذه الحرب. واستنتاجه هذا نابع من خبر مفاده أن السفير البرتغالي كانت له جلسة طويلة مع السلطان في إحدى رياضاته، وبأن هذا الأخير لم يشر بتاتا إلى هذا الموضوع. كما أن المؤلف يخبرنا بأنه في حواراته مع الوزير الأول لم تجرِ الإشارة إلى هذا الموضوع إلا إشارة عابرة. ومن هذين الحادثين، يخرج المؤلف باستنتاج أعم، وهو أن المغاربة لا تربطهم بالأتراك أي علاقة دينية أو سياسية:

«إن سلطان إسطنبول لا يُعتبر من طرف المغاربة رئيسا لديانتهم. يمكن اعتبارهم نوعا ما بروتستانتيين. فعاهلهم هو رئيس كنيستهم، وليس ذلك السيد المتسلطن الذي يمتد نفوذه الديني، كنفوذ البابا، على عدة جنسيات. لذلك، ليس هناك بين التركي والمغربي أي رابطة سياسية»[20].

وهو في خروجه بكل هذه الاستنتاجات، كأنه يغفل الجو الديبلوماسي الحذر الذي كان سائدا آنذاك، وكذلك الذي كان ينهجه السلطان المغربي وحاشيته، خاصة في علاقاته مع مبعوثي مختلف الدول الأوروبية. أما عن تخلف المغرب، فهو يعزوه أولا إلى سياسة الانعزال التي كان ينتهجها المغرب. فهو يتحسر على كون السياسة الخارجية للمغرب أكثر انطوائية مما ينبغي. ويعزوه ثانيا إلى الدين الإسلامي ورفض المغاربة القبول بالحضارة الأوروبية. فالمؤلف على الرغم من معرفته بالأطماع الأوروبية في تلك الفترة بالذات، يتظاهر بحب الرقي والازدهار لهذا البلد، ويدل المغاربة على أنجع الوسائل للالتحاق بركب الدول القوية:

«لو أن المغاربة اعتمدوا سياسة أوروبا ونظمها، كما فعل اليابانيون، ربما كانوا سيتبوأون مكانتهم بين الأمم كدولة عظمى. ولكن دينهم يشكل حاجزا منيعا أمام هذا الاتجاه»(21).

فالشق الأول من هذا الكلام، وإن كان فيه ما فيه من الوجاهة، يتضمن كذلك قدرا غير يسير من المخادعة، لأن القبول بـ «سياسة أوروبا ونظمها» كان يعني، في تلك المرحلة بالذات، فتحَ البلاد على مصراعيها على الأطماع الأوروبية، وتوفير كل الوسائل للغازي الأوروبي وتمكينه من الشروع في تطبيق خطته الاستعمارية والاستفادة من خيرات البلاد على أكمل وجه وفي أسرع وقت. ولا شك في أن تلك السياسة الخارجية للمغرب هي التي منحته هامشا من المناورة والمقاومة، وبهذا لم يتسن للمشروع الاستعماري أن يتحقق - بالنسبة إلى حالة المغرب - إلا في مطلع القرن العشرين.

أما الفصل الثالث فقد خصصه لوصف مدينة فاس ولرحلة الإياب منها، عبر مدن القصر الكبير والعرائش، إلى طنجة التي وصلها مع البعثة السفارية يوم 02 يوليو 1877. ومن بين الأمور التي شدت انتباه الرحالة إلى هذه المدينة الجانب العلمي. ولكنه جانب لا يُروى إلا بصيغة القيل: «يُقال إن فاس تحتوي على مجموعات من الكتب داخل بعض المساجد، وهي ما تبقى من الأيام التي سبقت انحطاط القوة والذكاء المغربيين» (ص 56). وعلى الرغم من حرص آرثر ليرد ورغبته الشديدة في الحصول على بعض الكتب القديمة (مثل كتب ليفي المفقودة)(*)، عوض بقائها في حالة «إهمال»، وهي الرغبة التي كانت مشفوعة بوعود ورسائل من والي فاس ومن ابنه، وكذلك من شريف وزان، فإن المؤلف لم يستطع الوصول إلى تلك المجموعات من الكتب، مما جعله يستنتج بحسرة ومرارة: «يبدو أن هذه المسألة من بين الأمور التي تجعل المغاربة مصممين على عدم إرضاء حب الفضول لدى الأوروبيين أو الرضوخ لتدخلهم. لقد تم إظهار كل أنواع الأعذار والخدع والتهرب التي يتقنها المغربي؛ وهكذا لم أر لا كتابا ولا مخطوطا» (ص 56).

يمكن الخروج من هذا النص بملاحظتين: الأولى هي أنه يفيدنا حول الكيفية التي كان يفكر بها المثقف/ المفكر الأوروبي بخصوص كتب المغاربة وتراثهم العلمي. فهو يرى لنفسه أحقية الحصول على هذا التراث الذي يعاني الإهمال، من جهة، ولا يستفيد منه المغاربة، من جهة أخرى، نظرا إلى انحطاطهم الفكري. والملاحظة الثانية هي أن هذا النص يلقي بعض الضوء على الطريقة التي تم بها الحصول على آلاف المخطوطات المغربية، والتي انتقلت إلى مكتبات لندن وباريس ولايبتسيك وبرلين وغيرها. ولكن يبدو في حالة رحالتنا هذا، أن «اعتذارات وخدع وتهرب» المغاربة هي التي ساهمت في الحفاظ على ما تبقى من تلك المخطوطات.

(*) يقصد بذلك الأجزاء المفقودة من كتاب تيتوس ليفيوس (59ق - 17م) Titus Livius حول تاريخ روما.

بالإضافة إلى هذه الفصول، ضمَّن المؤلف كتابه خمسة ملاحق مرقمة بالأحرف الهجائية؛ ففي الملحق الأول (A)، أعطى المؤلف عرضا تاريخيا عن معركة وادي المخازن اعتمد فيه أساسا - كما قال - على «عمل في غاية الأهمية... ومؤلفه المتميز هو الممثل الحالي للبرتغال في البلاط البريطاني»[22]. ويبدو أن المؤلف أراد أن يرد شيئا من الجميل للبرتغاليين، فسرد النبذة التاريخية من وجهة نظر برتغالية، برغم أن المكتبة البريطانية كانت تتضمن عدة كتابات بالإنجليزية وبالفرنسية وبلغات أخرى حول الواقعة نفسها[23]، نظرا إلى حجم المعركة وطابعها الأوروبي أولا، ونظرا إلى مشاركة القبطان الإنجليزي توماس ستاكلي Thomas Stukeley في بعض أطوارها ثانيا، ولكونها فتحت طورا جديدا من العلاقات الديبلوماسية المتميزة بين المغرب وبريطانيا ثالثا.

الملحق الثاني (B)، خصصه المؤلف، كعادة أغلب الرحالة الذين مروا من هنا، لوصف الموقع الأثري الروماني لـ وليلي. ومن بين أهم النقاط الواردة في هذا الوصف هو محاولته المساهمة في إعادة تركيب ثم قراءة الكتابات المنقوشة والشواهد اللاتينية المتناثرة بالموقع بغية الحصول على معلومات أكثر حول بعض الجوانب التاريخية للمكان والموقع الحقيقي. وبعد مقابلة للكتابات الموجودة بالموقع مع المصادر القديمة، وكذلك في كتب من سبقه من الرحالة، يستنتج آرثر ليرد على طريقة الجغرافيين والمستكشفين الكبار أن المكان الذي زاره - أي قصر فرعون - هو الموقع الحقيقي للمدينة الكبيرة المعروفة في المصادر السابقة باسم وليلي. أما الإضافة الأخرى التي جاء بها المؤلف، فهي المقارنة بين وليلي التي رآها هو، وبين التي شاهدها ووصفها من قبله من الرحالة الأوروبيين (خاصة جون ويندوس John Windus, 1725، وهنري بويد Henry Boyd, 1736[24]). ومن خلال هذه المقارنة، يقف المؤلف على التغيرات التي طرأت على الموقع الأثري، وعلى المآثر التي انهارت ربما بفعل الزلازل أو التي اختفت. أما الهفوة التي صدرت من آرثر ليرد في هذا العمل المقارن فهي ادعاؤه أن ليون الأفريقي (الحسن الوزان)[25] لم ير وليلي، معتمدا في دعواه تلك على المقابلة بين حساب المسافة الذي قدمه ليون الأفريقي والحساب الذي قام به هو[26]، على الرغم من أن ليون يقول بصريح العبارة في السياق نفسه: «أما بالنسبة إلي فإن بعض الحروف اللاتينية التي تُقرأ على الجدران أكدت لي يقينا أن مؤسسيها هم الرومان»[27]. وهذا الكلام لا يدع مجالا للشك أن ليون الأفريقي قد زار فعلا المكان المعروف بقصر فرعون، بل وقرأ الأحرف اللاتينية الموجودة على جدرانه. وهذا ما جعل المحقق الإنجليزي المعروف روبرت براون Robert Brown ينبه - في تعليقاته على ترجمة بوري Pory لكتاب ليون الأفريقي - على أن:

«الدكتور آرثر ليرد والسيد تيسو Tissot قد تسرعا في استنتاجهما استحالة أن يكون ليون الأفريقي قد شاهد فعلا آثار المدينة تحت الدرس «أي قصر فرعون» ومدينة وليلي،

وهو الاسم الذي اعتبراه بوضوح لا ينطبق (على المكان)، وذلك لجهلهما فيما يبدو بالمقاطع الواردة في نصوص المؤرخين المذكورين سلفا»[28].

على كل حال يبقى الجهد المشكور للمؤلف في هذا الملحق هو محاولته إلقاء مزيد من الضوء على تاريخ المكان من خلال دراسته وتحليله لما تبقى من الرموز اللاتينية الموجودة على جدرانه.

أما الملحق الثالث (C)، فهو عبارة عن صورة للنسخة الأصلية (العربية) من جواز المرور الذي حصل عليه المؤلف من السلطان، مع ترجمته الإنجليزية. وإثباتها هنا في هذا الكتاب دليل على اعتزازه أيما اعتزاز بهذه الوثيقة. ونظرا إلى أهميتها، فقد جاءت ضمن الملحقات التي أضافها المحقق للطبعة الثانية من الكتاب الأول (1891).

وفي الملحق الرابع (D)، يعطي المؤلف بيانا للرحلة في شكل جدول بأسماء الأماكن التي زارها المؤلف، يتضمن تواريخ الانطلاق والوصول من وإلى مختلف الأمكنة، وزمن كل رحلة، مع المسافات ودرجات الحرارة الصباحية والزوالية والليلية. وهي معطيات قد تفيد الدارس بالتغيرات المناخية في هذا البلد عبر مدة زمنية معينة، ومقارنة مع ما قد تؤول إليه في أزمنة أخرى. كما أنها تعكس العقلية العلمية للطبيب آرثر ليرد والقيمة الكبيرة التي كان يوليها للزمن والتفاصيل الإحداثية الأخرى.

أما الملحق الخامس (E)، فقد خصصه المؤلف للرحلة التي قام بها من طنجة إلى تطوان بصحبة زوجته، وبرفقة دليله السابق قدور وأحد الجنود المغاربة. وبما أن المؤلف قام بهذه الرحلة الأخيرة في فصل الربيع، فإنه شاهد من جمال الطبيعة وفنون الفلاحة المغربية ما جعله - على غير عادته - يغدق هذه المرة على المغرب بأحسن الأوصاف وأجملها، حتى قال: «إن بعض الناس قد اعتادوا على التحقير من شأن المغرب ووصفه بأنه قفار قاحلة، ولكن سبب ذلك هو أنهم شاهدوه فقط بعد أو أثناء جفاف الصيف الطويل» (ص 83). كما أثنى على نظام البريد المغربي الذي يتمثل في «مجموعة من سواعي البريد الذين يقطعون مسافات هائلة في يوم واحد، ويحافظون على الوتيرة نفسها لعدة أيام متتالية» (ص 84). وبعد وصف جمال البيوت التطوانية من الداخل، فإنه عقب على ذلك بـ «أنها أحسن من كل البيوت التي رأيتها داخل المغرب. إن القرب من أوروبا قد كان له أثره بشكل واضح» (ص 85). ثم عند زيارته الدّير الإسباني للمدينة، أشار إلى أن «درجة النجاح في الحصول على متنصرين جدد هي: لا أحد على الإطلاق، كما هي الحال بالنسبة إلى كل البعثات التبشيرية بين المسلمين» (ص 86).

آراء نقدية حول الكتابين

بالنظر إلى المضامين التي يزخر بها الكتابان، وبالنظر كذلك إلى طبيعة أسلوب المؤلف، يمكن إدراجهما في ذلك النوع من كتب الرحلات الإنجليزية التي كانت تروم إطلاع القارئ

الإنجليزي، بصفة عامة، وصانعي القرار البريطاني، بصفة خاصة، على الجوانب التاريخية والاجتماعية والثقافية والطبيعية للبلد، مع توخي الوصف الدقيق والتحليل النقدي (من وجهة نظر غربية إنجليزية)، والخروج بتوصيات من المؤلف، يمكن أن تخدم العلاقات البريطانية الآنية والمستقبلية مع المغرب والمغاربة. وبخصوص هذه التوصيات، لا بد من الإشارة إلى أن الكتّاب والدبلوماسيين والرحالة الإنجليز في نهاية القرن التاسع عشر يمكن تصنيفهم وفق الموقف الذي يتعين على بريطانيا أن تنتهجه في تعاملها مع المغرب، إلى صنفين:

1- صنف لم يكن يرى أي جدوى من إصلاح البلد وأهله؛ بل كان يرى أن الأجدر ببريطانيا وببقية الدول الأوروبية هو احتلال هذه البلاد وتخليصها من سكانها الهمجيين للاستفادة من خيراتها خدمة لمصالحهم وإحلالا للحضارة بدل التخلف. ولعل «أحسن» من يمثل هذا التوجه ويعبر عنه بشكل مباشر لا يخلو من مغالاة هو لورنس ترينت كيف (1826 - Laurence Trent Cave (1899، في تقديمه لكتاب جيمس ريتشاردسن (James Richardson) حول رحلته إلى المغرب، كما يبدو جليا في النص التالي:

«إن الحضارة لتنادي بأعلى صوتها لإنصافها من عنصر بشري تُعَلمه ديانته أن ينظر إلينا على أننا «كلاب». عوض حمايتهم ومودتهم، يجب علينا - على وجه التأكيد - أن نطردهم من الأراضي الجيدة التي يحتلونها، وأن نلزمهم بالعودة إلى الصحراء التي لفظتهم على أجدادنا قبل عشرة قرون خلت. إن لحظات قصيرة من المجد في بغداد والقاهرة وغرناطة يجب ألا تحمي هؤلاء الذين استعبدتهم الآن أرذل الرذائل التي تحط من طبيعة البشر. لا يمكن بتاتا تطبيق أي إصلاحات إدارية. لقد تدهورت حالتهم الأخلاقية. والدواء الوحيد هو غزوهم واستبدالهم بحكومات مسيحية في شمال أفريقيا وفي تركيا وآسيا. لقد تعبت روسيا وفرنسا والنمسا واليونان وإسبانيا من تجاوزات جيرانهم الهمجيين. ولم يعد لأحد ميل إلى تحمل سيوفهم الحاقدة»[29].

2- وصنف كان يأمل في إصلاح المغرب بما يعود بالنفع على المصالح التجارية والاقتصادية وحتى الاستراتيجية لبريطانيا، من دون التفكير في احتلال البلاد بأكملها من طرف بريطانيا، وإن كانت هناك إيحاءات بضرورة احتلال طنجة لتأمين الإمدادات لصخرة جبل طارق. وأحسن من يمثل هذه النظرة، بل وعمل على تحقيقها، جون دراموند هاي (John Drummond Hay).

ويبدو من خلال مضامين كتابي آرثر ليرد، وأسلوبه في الحديث عن البلد وأهله، وكذلك بالنظر إلى آرائه حول مستقبل العلاقة مع السلطان، يبدو أنه أكثر ميلا إلى كُتاب الصنف الثاني، على اعتبار أن ما قام به من وصف دقيق للبلاد ونُظمها ومواردها الاجتماعية والطبيعية إنما هو بمنزلة توصية للرأي العام ولصانعي القرار البريطانيين بالتفكير بجد

في أنجع الطرق لاستغلال خيرات البلاد على جميع المستويات (الطبيعية والمناخية وغيرها)، من دون الدخول في مغامرة طويلة الأمد وباهظة التكاليف، بالنسبة إلى بريطانيا، من أجل تدجين شعب بهذه «الهمجية». فهو وإن كان لا يخفي احتقاره وازدراءه لهذا البلد وأهله، فإنه لا يذهب بتاتا، لا تصريحا ولا تلميحا، إلى حد التحريض على احتلاله كلية من طرف بريطانيا. بل الأجدر بالنسبة إلى بريطانيا هو أن تترك للدول الصديقة أعباء الاحتلال ونشر «الحضارة»، على أن تكتفي هي بقطف الثمار بأنجع الوسائل وأذكى المخططات وبأقل ثمن ممكن. ولعل هذا ما فهمه واستبطه ريتشارد بورتن من المؤلف، فعبَّر عن ذلك بطريقته الخاصة، عند حديثه - في تقديمه للطبعة الثانية للكتاب الأول - عما ستفعله فرنسا وإسبانيا:

«سيأتي الزمان عندما تتمكن فرنسا وإسبانيا، وهما الدولتان الأكثر اهتماما بالمسألة، من الانتصار على خليفة سخيف (...)، وستتمكن صفارة البخار على السكة الحديدية الرابطة بين طنجة وفاس من القضاء على «الفيودالية» وعلى التشدد والقرصنة والفتور والاستقلال «هكذا»[30].

إذا كان هذا هو رأي آرثر ليرد، فإن ما كانت تخطط له الدوائر السياسية التي كانت تدير دواليب الشؤون الاستعمارية والتوسعية لبريطانيا، شيء آخر. أما ما حققته بريطانيا لذاتها من تلك الخطط فيظهر أنها لم تستطع تحقيق شيء يذكر مما كان يصبو إليه رحالتنا. بل حتى المحاولات الإصلاحية لبريطانيا في المغرب «بواسطة ممثلها جون دراموند هاي باءت بالفشل ولم تكلل إلا بنجاح نسبي وضئيل»[31]، ولا يُقارن بتاتا مع ما حققته الدول الأوروبية الأخرى، خاصة فرنسا وإسبانيا. ولكن لا بد من الاستدراك أن ما تسميه بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية «تحضيرا» أو «إصلاحات» لم يكن لسواد عيون المغاربة بقدر ما كان مجموعة تدابير تمهد الطريق للقوى الأوروبية، كل على حدة، للاستفادة من الفرص التجارية والاقتصادية والاستراتيجية التي كان يمثلها المغرب. وعند تصنيفه لكتب الرحلات الإنجليزية حول المغرب، أشار رولون لوبيل Roland Lebel إلى الكتاب الثاني لـ آرثر ليرد (A Visit to the Court of Morocco)، ووَضَعه في صنف كتب البعثات الديبلوماسية التي لا تحتوي على القيمة التاريخية التي يحفل بها غيرها من أصناف كتب الرحلات الوثائقية؛ كما اكتفى لوبيل بالتعقيب على الكتاب بأنه يعكس «جانبا من نوع التسابق الذي انخرطت فيه الدول الأوروبية على المستوى الديبلوماسي من أجل الظفر بوضع أكثر امتيازا في المغرب من وضع الجار»[32]. ولكن لا بد من الاستدراك على هذا الكلام أن كتابات آرثر ليرد، بالإضافة إلى كتابات الرحالة الإنجليز الآخرين، قد أثرت بشكل عام في صناع القرار البريطاني. ولنضرب على ذلك مثلا اللورد روبرت ساليزبوري (1830-1903) Lord Robert Salisbury أحد

أهم مهندسي السياسة التوسعية لبريطانيا، فإنه في خطابه الشهير بالعاصمة الاسكتلندية كلاسكو سنة 1891، استعمل الألفاظ ذاتها التي تواترت على تردادها أغلبُ - إن لم تكن كل - كتب الرحلات الإنجليزية حول المغرب. وهي ألفاظ من قبيل تخلف المغاربة وهمجيتهم وخطرهم المحدق بأوروبا!

كما أن كتب الرحلات قد شكلت - إلى حد بعيد - الرأي العام البريطاني، وساهمت في الحفاظ على الصورة النمطية الموروثة عن المغرب والمغاربة. وفي هذا الإطار يبدو أن آرثر ليرد قد نحا في التأليف نحو أسلافه من الرحالة الإنجليز الذين دأبوا في جل كتاباتهم حول المغرب على المنوال نفسه، مع اختلاف بينهم في ترتيب مواد الكتاب. ولذلك فإن كتابيه، وإن كانا حافلين بالمعلومات والمعطيات، كان متداولين بشكل أو بآخر بسبب مَن سبقه من الرحالة، الذين كتبوا الشيء الكثير وبالأسلوب نفسه تقريبا، حتى لو كانت الفترات التي جاءوا فيها مختلفة. هذا لسببين رئيسيين: أولهما اعتمادهم بعضهم على بعض، واعتبار الرحلات السابقة مراجع في حد ذاتها يُستغنى بها عن كتب التاريخ وعن كتب ومراجع المحليين (أصحاب البلد). وثانيهما هو الركود والانحطاط اللذَان طبعا بعض مناحي الحياة في المغرب لبضعة قرون؛ ثم جاءت أقلام بعض الرحالة وزادت الحياة ركودا وانحطاطا، فأعطت الانطباع أن لا شيء يتحرك، وأن كل شيء هو كما كان منذ آلاف السنين. ولعل الوسيلة الوحيدة للرحالة ليثبت أنه جاء بشيء جديد، فيُقنع من يكتب من أجلهم بجدوى رحلته، هو أن يدعي أنه زار واستكشف أماكن لم يُسبق إليها، أو أنها كانت ولاتزال محرمة على الأوروبيين أو المسيحيين.

ولم يكن آرثر ليرد ليشكل استثناء من هذه القاعدة؛ فهو منذ الجملة الأولى من تقديمه للكتاب الأول يعلن أنه يحاول أن يقدم في هذا العمل سردا عما رآه وسمعه في «بلد يكاد يكون معروفا أقل من أي بلد آخر في العالم»(33). وكذلك فعل في تقديمه للكتاب الثاني، عندما وصفه بأنه «سرد لوقائع رحلته عبر إحدى الجهات الأقل زيارة في العالم...»(34). مع أن الكاتب قد سُبق من طرف ما لا يقل عن 85 من الرحالة والسفراء والقناصل الإنجليز، فضلا عن الرحالة الأوروبيين الآخرين الذين تُرجمت أعمالهم إلى اللغة الإنجليزية. ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت لامبرت بلايفير وروبرت براون، عند تقييمهما الوجيز للكتاب الأول، يشيران إلى أن هذا العمل، وإن كان «يتضمن معلومات كثيرة، جُمعت بمهارة»، مع «سرد حي للتجارب الخاصة للمؤلف»، فإنه «حافل بالأخطاء»، كما أن المؤلف «لم يدخل إلى أي أرض جديدة من التراب المغربي»(35). ويحمل هذا التقييم قسطا وافرا من الوجاهة بالنظر إلى الأماكن التي زارها المؤلف. ففي الرحلة الأولى، تنحصر هذه الأماكن في بعض المدن الساحلية للمغرب، بالإضافة إلى الطريق بين الصويرة

ومراكش وبين مراكش وآسفي. وفي الرحلة الثانية سلك الطريق المعروفة من طنجة إلى مكناس وفاس مع اختلاف طفيف بين الذهاب والإياب، كالمرور على أطلال وليلي. وكل هذه المدن الكبرى، سواء الداخلية منها أو الساحلية، سبق أن زارها الرحالة قبل ليرد وقتلوها وصفا، وإن كان لكل رحالة مشاهداته وملاحظاته الخاصة بطبيعة الحال.

ولا بد من الإشارة - في هذا الإطار - إلى أن الرحالة الذي كان يأتي إلى المغرب في هذه الفترة بالذات (أي الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) كان عليه أن يفرق بين مغربين إن صح التعبير: مغرب ساحلي ومغرب داخلي. فكلما كان توغله في الداخل كبيرا كانت رحلته «ناجحة» و«مفيدة» بالمقاييس الأوروبية، وكلما كانت ساحلية، فإنها لا تعدو - في غالب الأحيان - على أن تكون زيارة للمغرب المعروف آنذاك. ونقصد بهذا الفرق بين «المغربين» التنبيهَ على المناخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي «السابق والممهد للاستعمار»، الذي كان يطغى على المدن الساحلية للمغرب، على خلاف المناطق الداخلية. وقد أشار إدموند بورك Edmund Burke, III إلى الشق السياسي من هذا الفرق بقوله:

لقد تعلم الأعيان المسلمون المقيمون في المدن المراسي على ربط علاقات مع الأوروبيين ومع عناصر من المخزن. فبينما استمرت بالداخل الأشكال القديمة للعلاقات السياسية من دون أن يعوقها شيء، فإنه بدأ يبرز على الوجود في الساحل أسلوب جديد من السياسة سابق وممهد للاستعمار(36).

ولا شك في أن هذا المناخ السياسي بالمدن المغربية الساحلية كانت له آثاره على المستويات الأخرى. فالرحالة الأوروبي، على سبيل المثال، كان يجد في استقباله، حتى من دون أن تبتل قدماه بماء المرسى، من يحمله من الباخرة إلى يابسة المرسى، ومن يتكلم معه بلغته (وإن كانت لغة الحمّال!)، ومن يعرض عليه خدمات الدليل والحراسة والترجمة والإقامة والسياحة وغيرها. بالإضافة إلى ذلك كانت هذه المدن المراسي تعج بالتجار الإنجليز وشبكة من التجار اليهود المغاربة الذين كانت تربطهم بإخوانهم في بريطانيا علاقات الدِّين والدَّين والقرابة والتجارة. أضف إلى ذلك، الحضور الأوروبي اللافت، والمتمثل في السلك الديبلوماسي والصحافيين والعملاء والذين كانت توحدهم - في أغلب الأحيان - المصالح الأوروبية المشتركة في مواجهة المخزن المغربي من جهة، وتوحدهم الثقافةُ الأوروبية المشتركة في مواجهة المسلمين المغاربة من جهة أخرى. وفي ظل هذا المناخ، كان الرحالة الإنجليزي لا يجد - في أغلب الأحيان - متاعب لوجيستية أو مشكلات أمنية... إلا إذا بحث عنها. أما في الداخل، فإن الرحالة الذين استطاعوا أن يسبروا أغوار المجتمع المغربي هم الذين كان لهم حس كبير من المغامرة ومعرفةٌ معتبرة بثقافة المغاربة وبلغتهم كذلك في كثير من الأحيان.

وهذا لم يتحقق إلا للذين تماهوا في المجتمع المغربي، مثل المتنكرين في لباس المغاربة ولغتهم والأسارى ومعتنقي الإسلام... وعند وضع المسارات التي اتبعها آرثر ليرد في هذا النسق، فإن رحلته تبدو من النوع الكلاسيكي، أي الذي نهجه أغلب الرحالة الذين سبقوه، من جهة، ولكنها من جهة أخرى أهم من كثير من الرحلات التي اكتفى أصحابها، من قبله ومن بعده، بزيارة طنجة وتطوان وما جاورهما، ثم عادوا إلى بريطانيا ليكتبوا عن «مغامراتهم» في المغرب وأفريقيا(*). ومما يدل على وعي آرثر ليرد بهذا النقص، هو إشارته، في تقديمه للكتاب الأول، إلى اعتماده على النسخة الإنجليزية لكتاب الرحالة الألماني كِرهارد جولفس «مغامرات في المغرب» (Gerhard Rohlfs, Adventures in Morocco)، على الرغم من تضمنه بعض المعلومات غير الدقيقة؛ نظرا إلى أن «ندرة الكتب حول هذا الموضوع في الوقت الحاضر تفَسَّر بصعوبة السفر داخل المغرب»[37].

وهذا يقودنا إلى الحديث عن المصادر والمراجع التاريخية التي استقى آرثر ليرد معلوماته منها، والتي يمكن تقسيمها إلىٰ قسمين: يتمثل القسم الأول في المصادر الشفاهية، ونقصد بذلك الكم الهائل والحيوي من المعلومات التي أخذها المؤلف من أعضاء السلك الديبلوماسي الإنجليزي والفرنسي، خصوصا الذين ذكرهم في تقديمه للكتاب الأول (ص ٧). وكذلك من بعض التجار الإنجليز واليهود المغاربة المرتبطين بالجالية الإنجليزية في المغرب. يضاف إليها مجموع الروايات والشروح والآراء والترجمات التي يقدمها له الدليل (قدُّور، في الكتاب الأول) والحراس والمغاربة الآخرون، وهي التي يشير إليها عرضا في ثنايا سرد الرحلات.

أما القسم الثاني فيتمثل في المصادر البيبلوغرافية التي لم يُفردها المؤلف بلائحة مستقلة، بل ذكرها متفرقة في ثنايا الكتابين. وبالنظر إلى هذه المصادر الأخيرة، يتضح أن آرثر ليرد لم يكتف بتجربته الخاصة في الملاحظة والوصف، بل اعتمد على من قبله في إعطاء نظرة عن المغرب والمغاربة. وبعد استقراء هاته المصادر واستخراجها من الكتاب الأول (Morocco and the Moors)، يمكن تصنيفها إلى نوعين:

(*) كتب تشارلز دادلي وارنر Charles Dudley Warner سنة 1882 كتابا بعنوان «عبر أفريقيا» Across Africa، وصف فيه رحلته «الطويلة» ومغامراته في أثناء عبوره أفريقيا من طنجة غربا إلى تطوان شرقا! وكذلك كتبت أميليا بيريي Amelia Perrier كتابا عن «شتاء في المغرب» A Winter in Morocco، ولكن آرثر ليرد بعد الإحالة عليها في كتابه الأول لوصف الزفاف المغربي، يشير إلى أن «تجربتها كانت مقتصرة على طنجة» (ص 31).

1 - كتب التاريخ والرحلات

- Leo Africanus, Description of Africa (1526), Pory's Translation, London, 1600.
- Lord Sandwich's Journal, London, 1662.
- Robert Adams , The Narrative of Robert Adams, London, 1816.
- David Urquhart, Pillars of Hercules or A Narrative of Travels in Spain and Morocco in 1848. London, 1850.
- Lord Braybrook's edition of Pepys'Diary, London, 1854.
- Don Luiz Maria do Conto de Albuquerque de Cunha, Memórias para a história da praça de Mazagào, Lisboa, 1864.
- Joseph D. Hooker and J. Ball, Journal of a Tour in Morocco and the Great Atlas. London, 1871.
- Auguste Beaumier, Le Choléra au Maroc en 1868, Paris 1872
- Amelia Perrier, A Winter in Morocco, London, 1873
- Gerhard Rohlfs, Adventures in Morocco, London, 1874.
- Donald Mackenzie, The Flooding of the Sahara, London.

هذا بالإضافة إلى إشارة المؤلف هنا وهناك إلى قراءاته السابقة في الترجمة الإنجليزية لكتاب ألف ليلة وليلة، من أجل المقارنة مع ما شاهده في المغرب.

2 - مصادر جغرافية ومناخية

- Pliny, Natural History, John Bostock and H. T. Riley's translation, 1855
- C. W. King, History of Antique Gems, London, 1865.
- Boyd Dawkins, Cave Hunting, London, 1874.
- Gustave Lambert, in Bulletin de la Société de Géographie, Paris.
- Trovey Blackmore's article in The Athenæum, Sept 18th and Oct 30th, 1875.

هذا بالإضافة إلى الملاحظات الجغرافية والمناخية لـ أوجست بوميه Auguste Beaumi-er، وبلومر Plumer والحسن الوزان، وكذلك شذرات من مقالات من مجلة The Garden، حول جمال وروعة حدائق الزهور والورد المغربي (ص 203).

وكما هو الشأن في الكتاب الأول، يمكن كذلك اعتماد التصنيف نفسه بالنسبة إلى مصادر المؤلف في الكتاب الثاني (A Visit to the Court of Morocco):

1 - كتب التاريخ والرحلات

- Leo Africanus, Description of Africa (1526), Pory's Translation, London, 1600.

- John Windus, A Journey to Mequinez, London, 1725.
- Capt. Henry Boyd, Several Yoyages to Barbary, 2nd ed., London, 1736. [38]
- Miguel D'Antas, Les Faux Don Sébastien, Paris, 1866.
- Gerhard Rohlfs, Adventures in Morocco, London, 1874.

2 - مصادر علمية وجغرافية

- Ptolemy, Geography, Book IV. C. 1.
- Pomponius Mela, Chorographia. Edit. Vossii. Frankerae, 1700.
- Specchio geografico e statistico dell' imperio di Marocco, delcavaliere conte Jacopo Graberg di Hemso, Geneva, 1834.
- Carte de 1'Empire de Maroc. Réduite et gravée au Dépôt General de la Guerre. Paris, 1848.
- Pliny, Natural History, John Bostock and H. T. Riley's translation, London, 1855.
- Pomponius Mela, Chorographia. Edit. Gustav Parthey. Berolini, 1867.
- John Ball, Spicilegium Florae Marocanae, London, 1878.

وبالإضافة إلى هذه المراجع يحيل المؤلف، في بعض الأحيان، على كتابه الأول (Morocco and the Moors)؛ مستغنيا بذلك عن إعادة وصف بعض المشاهد أو شرحها في الكتاب الثاني. وكما يتضح من هذه اللائحة، فإن هناك مجموعة من المصادر التي اعتمد عليها في الكتابين معا، خاصة النسخة الإنجليزية لكتاب جرهارد جولفس ولكتاب وصف أفريقية للحسن بن محمد الوزان، الذي يسميه باسمه اللاتيني ليون الأفريقي Leo Africanus. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يعود تأليفه إلى سنة 1526، أي ما يناهز ثلاثة قرون ونصف القرن قبل زيارة المؤلف، فإن هذا الأخير يعتمد عليه في وصف أماكن زارها هو بنفسه ولكنه لم يستطع رؤيتها من الداخل، كما هو الشأن بالنسبة إلى المعمار الداخلي لمسجد الكتبية. بل إن ليرد يكتفي بوصف تردد الناس عليه، لا كما رآه هو بنفسه في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بل كما رآه الحسن الوزان ثلاثة قرون ونصف القرن من قبل. كأن الزمان قد توقف، ولا شيء قد تغير، أو هذا ما يريد المؤلف إبرازه. وللتخفيف من حدة هذه المفارقة التاريخية، فإن المؤلف يشير إلى أن «هذه المدينة التي كانت يوما ما عامرة ومتنورة، قد صارت إلى خراب كبير، ولا شيء يسود فيها الآن غير الهمجية والبؤس»[39]. وفي الفقرة الموالية يستدرك آرثر ليرد ويؤكد مع ذلك على أنه «على الرغم من اللامبالاة التي يحظى بها الأدب، فإن علم الفلك مازال لم يُفقد من بين المغاربة»[40]. ويعطي المثل برصد الكسوف الجزئي للشمس من طرف العلماء من على صومعة مسجد بن يوسف، بدل صومعة الكتبية، التي كانت هي المرصد الفلكي المعتاد.

أما من ناحية الأسلوب، فإن آرثر ليرد لم يستطع الفكاكَ - وأنّى له ذلك؟ - من طبيعة الأسلوب السردي الذي كان يطغى على الكتاب الأوروبيين بصفة عامة، وعلى نظرائهم الإنجليز على الخصوص. ذلك أن الكاتب البريطاني، بصفته امتدادا لوسط فكري وأدبي تتحكم فيه نظرة إمبريالية خاصة بعلاقة بريطانيا بإمبراطوريتها الفعلية والمأمولة، كان يتأرجح بين عالم المركز (بريطانيا) والعالم القابل للاستكشاف انطلاقا من هذا المركز. إن تحليل إدوارد سعيد لوضعية الكاتب الإنجليزي - الروائي - في هذا الإطار تنطبق كذلك على كاتب الرحلات الإنجليزي:

إن كونَ شخص ما كاتبا إنجليزيا كان يعني شيئا محددا ومختلفا تماما عن كونه، لنقل، كاتبا فرنسيا أو برتغاليا. فلقد كان «الخارج» بالنسبة إلى الكاتب البريطاني شيئا يُحَسُّ به، بشكل غامض ومخلخل، قائما هناك بعيدا، أو غرائبيا وغريبا، أو بطريقة أو بأخرى شيئا هو لنا لنسيطر عليه ونتاجر به «بحرية». أو لنقمعه إذا اكتسب الأصلانيون طاقة تدفعهم إلى المقاومة العسكرية أو السياسية العلنية[41].

ولئن كان السياق هو حال كاتب الرواية الإنجليزي بصفة خاصة، فإن الكلام يسري على كاتب الرحلات من باب أولى لأنه، بالإضافة إلى السرد الأدبي، المتمثل في قصة السيرة الذاتية والحبكة والشخوص وتقنيات السرد الأخرى، والتي تجتمع كلها في نص الرحلة، ولو بشكل مختلف شيئا ما عن الرواية الأدبية المحضة، فإن هذا الكاتب قد راكم - أكثر من الكاتب الأديب الذي يجلس على أريكته في لندن أو جلاسجو - تجربة عملية من خلال رحلة فعلية في هذا المجال الخارجي ومعايشة واقعية لأهله. فصارت آراؤه ومواقفه أكثر صلابة، وتأثيرُه أكثر عمقا وأبقى أثرا لدى القراء وصانعي القرار من آراء ومواقف نظيره الأديب «المحض». ومن بين الأمور التي كانت تحتم على كاتب الرحلات مزيدا من الوصف والدقة، هو ما أشارت إليه ماري لويز برات في حديثها عن الخاصية الأساسية التي ميزت أسلوب كُتاب الرحلات الإنجليز في منتصف العصر الفيكتوري، وهي المتعلقة بإثبات الاستكشاف الجديد عن طريق النص المكتوب:

«ففي هذا النسق الخاص بمنتصف العصر الفيكتوري، لا يحظى «الاكتشاف» نفسه، ولو داخل منطق الاكتشاف، بالوجود في حد ذاته. فهو لا يتحقق على أرض الواقع إلا بعدما يعود الرحالة (أو الناجي) إلى أرض الوطن، ويصوغ الاكتشاف في شكل نصوص: اسم على خريطة، أو تقرير للجمعية الجغرافية الملكية أو لوزارة الخارجية أو لجمعية البعثة اللندنية، أو يوميات، أو محاضرة، أو كِتاب رحلة... وكما تنبه لذلك المستكشفون، فإن كثيرا من المال والاعتبار كان مشروطا بدرجة قدرتك على جعل الآخرين يقتنعون بالأمور التي منحوك الثقة بسببها»[42].

ولعل هذه الأهمية المتنامية لنص الرحلة وللثقة التي يجب أن يحرص عليها الرحالة، نبعت كذلك من الاحتياط الذي تولد لدى القارئ الإنجليزي إزاء هذا النمط من الكتابة، خاصة بسبب مجموعة من نصوص الرحلات السابقة التي ثبت أنها كانت من نسج خيال أصحابها. ولكن الذي يبدو من كتابات آرثر ليرد، أولا بحكم طبيعته كعالم، وثانيا بحكم وضعه ككاتب متأخر - بالمقارنة مع كُتاب الرحلات الذين سبقوه - أن حظ الخيال من كتاباته لا يمس الوقائع التي وصفها، في كثير من الأحيان بدقة متناهية، وإنما قد يمس بعض تفسيراته لها أو تعليقاته الشخصية عليها، خاصة أنه لم تتسن له معرفة لغة المغاربة، مما جعله عالة على غيره من الأوروبيين وكذلك على المغاربة في شخص الدليل والحارس والأعيان، كلٌّ يترجم ويفسر ويخبر و... والمؤلف ينقل ذلك، تارة بشيء من التريث، وتارة من غير تمحيص. هذا الاجتماع غير المباشر لعدد من الأصوات والخطابات في كتاب واحد وباسم مؤلِّف واحد يدفعنا إلى الحديث عن زاوية نقدية أخرى، تتعلق بطبيعة كتابة الرحلة؛ فحالة آرثر ليرد تمثل نموذجا حيا للنظرية التي مفادها - وفق صدِّيق رداد - أن «أدب الرحلة البريطاني حول المغرب هو في غالب الأحيان طريقة هجينة للكتابة، وأن السكان الأصليين يساهمون في غالب الأحيان في عملية السرد، التي يوجهها بطبيعة الحال الرحالة - الراوي، والتي عادة ما تُنسب إليه/ ها»(43). هذه الوضعية تجعل آرثر ليرد في وضع حرج مقارنة مع رحالة إنجليز آخرين تمكنوا من تعلم اللغة العربية، مما جعلهم في غنى عن الاستنجاد بالسكان المغاربة من أجل الترجمة والتواصل. وبما أن هذا لم يتحقق لـ آرثر ليرد، فإنه قد استعاض عن ذلك بتقنية أخرى تخفي هذا النقص، وهي جعل المغربي يتكلم لغة «إنجليزية» ركيكة إلى حد الاشمئزاز تضعه في موضع السخرية من طرف القارئ البريطاني، وتجعله في وضع أقل بكثير من الأديب الرحالة. وهي تقنية لم يتفرد بها كاتبنا، بل تكررت بشكل مماثل جدا لدى رحالة آخرين من بريطانيا وأمريكا، مما يعزز الظن بوحدة الدافع لدى الكاتب - الرحالة ورغبته في إظهار تفوقه على مخاطَبه وإن لم يُحسن لغته العربية.

وبمناسبة الحديث عن العلاقة مع الدليل، فإن الكاتب الرحالة غالبا ما يعقد مقارنة غير مباشرة بين الذات الغربية المتنورة في مقابل الآخر/ المغربي المتخلف، وذلك من خلال نقل حوارات «علمية» أو «ثقافية» بين المؤلف (العالم، الطبيب، المثقف) والدليل «قدُّور» (البسيط، الجاهل...). وإذا كانت هذه هي حال الدليل المغربي، فإن الهوة تزداد عمقا واتساعا بين الذات والآخر، عندما يقارن الدليل نفسه مع بقية المغاربة، وبلغة إنجليزية موغلة في الركاكة، كما رواها المؤلف:

كان قدور معتدا بعلمه. فقد أخبرني أن «آلاف المغاربة جُهَّل لا يعرفون شيئا، مثل الخنازير البرية. لا يمرضون أبدا، ولا يموتون، ولا أي شيء». ويقصد بذلك أنهم لا يفكرون في المرض أو في الموت أو في أي شي آخر. كما أخبرني أن النمور كثيرة بإنجلترا...(44).

خلاصات

إن أهم خلاصة كان آرثر ليرد يريد الخروج بها من وراء كتابه الأول ككل، تنبع من تخصصه الطبي، وهي التي عبر عنها في تقديمه للكتاب الأول بقوله: «إن الشيء الواحد الذي كان نصب أعيننا، هو التنبيه قدر الإمكان على المناخ المغربي المختلف تماما، والذي يلائم الأشخاص الذين يعانون الأمراض الصدرية»(45). هذا ما عبر عنه المؤلف؛ أما منطوق الكتاب برمته، فهو أكثر من هذا بكثير، حتى يمكن القول إن كثيرا من مضامينه لا علاقة لها بالطب.

فالحديث عن أعراق المغاربة وعاداتهم وأعرافهم، مع الإحصائيات الدقيقة للسكان، والتقارير المفصلة حول تاريخ البلد وجغرافيته، وحكومته وقوته العسكرية ونظمه التعليمية والدينية، وكذلك عن ثرواته الطبيعية والنباتية والحيوانية، خاصة في الفصول من 13 إلى 17 من الكتاب الأول، إنما تدل على أن عمل المؤلف كان يندرج في المشروع الأكبر لبريطانيا، بصفة عامة، وللجمعية الجغرافية الملكية (البريطانية) بصفة خاصة. وهو مشروع كان يسعى، وعلى غرار مشاريع الجمعيات الجغرافية الأخرى في فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الدول الأوروبية، إلى المعرفة المُمَهِّدة لنشر «الحضارة» - بما تعنيه هذه الكلمة في السياق الاستعماري لنهاية القرن التاسع عشر - في هذا البلد والتمكين لـ «الإصلاحات» الأساسية في نظمه، حتى تتم الاستفادة منه على أحسن وجه. وهذا لا يعني بالضرورة أن آرثر ليرد كان يقصد بالضرورة خدمة المشروع الاستعماري، الذي اتضحت معالمه بالنسبة إلى حالة المغرب فيما بعد؛ ولكنه على الأقل كان له من العلم والوعي باختلاف الشعوب والحضارات ما كان يمَكِّنه من القبول بالآخر والتعايش معه، ولو في حدود معينة! ذلك أن «فتح الأرض الذي غالبا ما يعني انتزاعها من أولئك الذين لهم بشرة مختلفة عن بشرتنا أو أنوف أكثر تسطيحا بقليل من أنوفنا، ليس عملا جميلا حين تتأمله بإمعان»(46).

والتعبير هنا لجوزيف كونراد، وهي الكلمات التي تتصدر الترجمة العربية لكتاب إدوارد سعيد الذي يسعى فيه إلى استكناه العلاقة المعقدة بين الثقافة والإمبريالية.

أما بالنسبة إلى المؤرخ المغربي، فإن كتابات آرثر ليرد تبقى على درجة كبيرة من الأهمية لعدة اعتبارات، وهي الاعتبارات التي تنطبق على أغلب كتب الرحلات المماثلة(47):

أولا: حرية الرحالة الإنجليزي في الكتابة والوصف والتعليق من غير إعمال لأي شكل من أشكال الرقابة، سواء الخارجية أو الذاتية، مما يسمح له بهامش من الحرية لم يكن متاحا للمؤرخ المغربي.

ثانيا: إغفال المؤرخ المغربي (من غير ابن خلدون ومن نحا نحوه) لذكر بعض الأمور أو عدم إعارتها أي اهتمام، إما بوصفها أحداثا عابرة وظواهر لا تستحق الذكر في كتب التأريخ، وإما بوصفها جوانب عادية من الحياة اليومية. بينما كانت هذه الأمور بالذات تجد لها حيزا مهما في كتب الرحلات الأوروبية. بل كانت تكتسي جاذبية كبرى في عيون الرحالة الإنجليز، ومنها كتابات آرثر ليرد. ولعل البعض منها سيساعد كثيرا، على سبيل المثال، في معرفة مظاهر الشعوذة والخرافات التي كانت تنخر قطاعات من المجتمع المغربي.

ثالثا: طبيعة كتابة الرحلة، والتي لا تلتزم بالضرورة بالقيود المنهجية نفسها والقواعد العلمية للكتابة التاريخية، مما يسمح للرحالة بتنويع مصادره وتسجيل انطباعاته، ولو كانت شخصية وذاتية. وهي كتابة تتداخل فيها كتابة السيرة الذاتية مع الأشكال السردية الأخرى، العلمية منها والأدبية.

وعلى الرغم من غياب الموضوعية في بعض الجوانب من هذه الكتابات، فإن كتاب الرحلة يبقى وثيقة مهمة بالنسبة إلى المؤرخ الذي يسعى - من خلال إعمال مناهجه الخاصة، من البحث في درجات الاستحالة والإمكان، والمقايسة والمقارنة مع الكتابات الأخرى المعاصرة لكاتب الرحلة، وكذلك لشيء من حدس المؤرخ - إلى أن يستخرج من هذه الوثيقة - مهما كانت درجة صحتها أو مطابقتها لواقع الأشياء - ما يلقي مزيدا من الضوء على حقبة معينة من تاريخ المغرب وبريطانيا، ليس على المستوى الديبلوماسي أو السياسي فقط، بل على كل المجالات الأخرى.

بالإضافة إلى هذا البعد التاريخي، تكتسي كتابات ليرد حول المغرب أهمية أخرى ترتبط بصورة الآخر المغربي في المخيال الإنجليزي،

وسماته العامة، وكيف أنها ساهمت بشكل أو بآخر في رسم معالم النظرة العامة التي على أساسها تعامل الإنجليز مع المغرب والمغاربة لردح من الزمان، وعلى أساسها مازال قطاع كبير من القراء الغربيين يتعاملون مع المغرب والمغاربة. ومن اللافت للانتباه أن تكثر، في السنوات القليلة الأخيرة، الطبعات الجديدة من كتابي آرثر ليرد بين أوساط القراء الأنجلوسكسونيين (في بريطانيا وأمريكا)(48)، على الرغم من مضي أزيد من قرن وربع القرن على كتابتهما؛ مما يعكس اهتمام هؤلاء القراء المعاصرين بمعرفة المغرب الحالي، ولو من خلال عيون القرن التاسع عشر، وبمعرفة مغرب القرن التاسع عشر، أو «المغرب الذي كان» - بتعبير والتر هاريس.

وأخيرا لا بد من الإشارة إلى أننا حاولنا قدر الإمكان أن نقدم نظرة أخرى عن كتابات آرثر ليرد، عوض السقوط في خطاب ردود الأفعال وتبرئة الذات من كل الصفات القدحية التي نلامسها - في بعض الأحيان بكل مرارة - في جل هذه الكتابات. ولا شك في أن هذه الدراسة لا تغني عن ضرورة قراءة الكتابين كاملين وترجمتهما إلى العربية. فقد أصبح من الضروري دراسة وتحليل الكم الهائل من كتب الرحالة الأوروبيين وتمحيصها بعين النقد؛ بغية مساءلة تاريخنا السياسي والاجتماعي كما كتبه الآخر، لا كما كتبناه لأنفسنا (أو كما أغفلناه). والنتيجة لا ريب ستكون مضاعفة: سنتمكن لا محالة من معرفة جانب من ذواتنا، في مراحل مختلفة من تاريخنا، وسنتمكن في الآن ذاته من معرفة تفكير الآخر، وربما إقناعه بما له وما عليه في نظرته إلينا. ذلك أننا من خلال كتب الرحلات يمكننا أن نعرف كيف «تبني الثقافات صورتها عن الثقافات الأخرى، وكذلك كيف تتغير هذه الصورة (أو كيف تبقى ثابتة عبر الزمن)؟»(49). وبمناسبة الحديث عن الثبات والتغير، لا بد من الإشارة أخيرا إلى أن مقاربتنا لكتابات آرثر ليرد حاولت قدر الإمكان أن تعطي قراءة أخرى، ولكن لا شك في أن هذه المقاربة هي كذلك بدورها محكومة بقانون المراجعة والتغير عبر الزمن.

الهوامش

1 كريم بجيت، «الرحلة بين النص والوثيقة: صورة طاعون سنتي 1798 و1800 ومخلفاته في رحلة جيمس جري جاكسون»، في كنانيش (الديموغرافيا التاريخية في أدب الرحلة)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، الرقم 3، صيف - خريف 2001، ص 66.

2 «المغرب بين النفوذ البريطاني والألماني خلال القرن التاسع عشر»، المغرب وألمانيا، منشورات جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، الرقم 17، 1991، ص 59.

3 خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى (1856 - 1886)، الدار البيضاء، الشركة المغربية للنشر ولادة، 1990، ص 464.

4 عبدالهادي التازي، «التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أواخر القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين»، في مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث (من عصر الحسن الأول إلى عصر جلالة الملك الحسن الثاني)، إشراف عبدالحق المريني، الرباط: دار المناهل للطباعة والنشر، 1996، ص 394. انظر كذلك الفصل الخاص بـ «العلاقات المغربية البريطانية» في التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، المجلد العاشر، عهد العلويين 2. المحمدية: فضالة، 1989 - 1409، ص 63 - 78.

5 التازي، «التاريخ الدبلوماسي للمغرب... »، 1996، ص 394.

6 خالد شاوش، «الرحالة الإنجليز إلى المغرب»، في معلمة المغرب، المجلد 13، مطابع سلا، 2001، ص 4297.

7 Roland Lebel, «Le Maroc dans les relations des voyageurs anglais aux XVIe, XVIIe et XXVIIIe siècles», Hespéris, Tome IX, année 1929, 4e Trimestre, p. 294.

8 Roland Lebel, Le Maroc chez les auteurs anglais. Paris: Larose, 1939, p. 137.

9 "Arthur Leared" in http://www.pgil - eirdata.org/html/pgil_datasets/authors/l/Leared,A/life.htm#life

10 Arthur Leared, Morocco and the Moors: Being an Account of Travels, with a General Description of the Country and Its People. London: Sampson Low, Marston, Searle, & Rivington, 1876, 370 p.

11 ريتشارد بورتن (1821 - 1890) هو أحد أقطاب الساحة الفكرية والأدبية ببريطانيا في القرن التاسع عشر؛ فبالإضافة إلى رحلاته في أفريقيا وآسيا، هو من أبرز المترجمين لكتاب ألف ليلة وليلة إلى اللغة الإنجليزية، غير أن معرفته بالمغرب كانت تقتصر - وفق لامبرت بلايفير وروبرت براون - على «فصل شتاء قضاه في طنجة»، A Bibliography of Morocco, Entry N° 1203, p. 366.

12 Arthur Leared, A Visit to the Court of Morocco. London: Sampson Low, Marston, Searle, & Rivington, 1879, 86 p.

13 نفسه، ص 0. Preface.

14 Anonymous, Moorish Literature. Translated into English with a Special Introduction by René Basset. London & New York: The Colonial Press, 1901, p. iii. (http://www.archive.org/details/cu31924027722085).

15 وهي التي شرحها في كتابه: The Flooding of the Sahara... London, 1877

16 Arthur Leared, A Visit to the Court of Morocco, p. 1.

17 المرجع نفسه، ص 8 و9.

18 المرجع نفسه، ص 2.

19 A Visit to the Court of Morocco, p. 17.

20 المرجع نفسه، ص 44.

21 المرجع نفسه، ص 45.

22 المرجع نفسه، ص 65، الكتاب هو Les Faux Don Sebastien, par Miguel D'Antas. Paris, 1866.

23 انظر، على سبيل المثال لا الحصر، نماذج من هذه الكتابات الإنجليزية في المصادر الغميسة لتاريخ المغرب، لـ هنري دي كاستري، المجلد الأول من سلسلة الدولة السعدية (الأرشيف والمكتبات الإنجليزية). أرقام 61 و70 و72.

Henry De Castries, Les Sources inédites de l'histoire du Maroc. Première Série: Angleterre – Dynastie Saadienne 1530 - 1660. Tome I (Paris: Ernest Leroux ; London: Luzac, 1918)

وبيبلوغرافيا المغرب من أقدم العصور إلى نهاية 1891، لـ لامبرت بليفير وروبرت براون، أرقام 78 و104 و112.

Sir R. Lambert Playfair and Dr. Robert Brown, A Bibliography of Morocco from the Earliest Times to the End of 1891 (London, 1892)

وانظر كذلك مقدمة خالد بكاوي لمسرحية معركة القصر الكبير، لجورج بيل، ص 14 – 20.

Khalid Bekkaoui, 'Introduction: The Battle of Alcazar and Entry of Morocco into English Literature' in George Peele, The Battle of Alcazar. Moroccan Cultural Studies Centre, Fez (Casablanca: An - Najah al - Jadida, 2001).

24 نبه لامبرت بلايفير وروبرت براون على أن الكتاب المنسوب إلى هنري بويد، Several Voyages to Barbary، هو انتحال لأعمال الآباء جون دو لافاي، ودينيس ماكر، وأوغسطين داركيساس وهنري لوروا، Relation en forme de Journal du voiage pour la redemption des Captifs au Roiaume de Maroc et d'Alger، Paris، 1726. وأن حظ هنري بويد من الكتاب هو إمداد الكتاب بالرسوم (انظر بيبلوغرافيا المغرب من أقدم العصور إلى نهاية 1891، ص 275 و277).

25 الحسن بن محمد الوزان (ليون الأفريقي)، هو صاحب كتاب وصف أفريقيا الذي ألفه بالإيطالية سنة 1526. أما آرثر ليرد فقد اعتمد على ترجمته الإنجليزية التي قام بها جون بوري John Pory سنة 1600، كما سيأتي.

26 Leared, A Visit to the Court of Morocco, p. 77.

27 الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف أفريقيا، ترجمه (عن الفرنسية): محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1983، ص 296.

28 Al - Hassan Ibn - Mohammed Al - Wezaz Al - Fasi, Known as Leo Africanus, The History and Description of Africa and of the Notable Things Therein Contained. Done into English in the year 1600 by John Pory, and Edited with an Introduction by Robert Brown. Vol. II. London: The Hakluyt Society, 1896, Note N° 92, p. 611.

29 James Richardson, Travels to Morocco. London, 1859. (http://www.fullbooks.com/Travels - in - Morocco - Vol - 1 - 1.html).

30 ريتشارد بورتن (Richard Burton) في مقدمته لكتاب آرثر ليرد، المغرب والمغاربة. ص ix. ولعل من سوء حظ آرثر ليرد وسوء حظنا معه أن يعتمد ويندهام ليوويس Windham Lewis سنة 1933 على هذا الكلام ليثبت صدق تنبؤات ريتشارد بورتن ليس فقط بخصوص تحقق المشروع الاستعماري، بل وعلى نظرية ليوويس المحتقِرة للبربر و«البرابرة» على حد تعبيره. انظر:

Windham Lewis, Journey into Barbary. Edited by C. J. Fox. Santa Barbara: Black Sparrow Press, 1983, p. 213.

31 خالد بن الصغير، بريطانيا وإشكالية الإصلاح في المغرب 1886 – 1904، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2003، ص 15.

32 Roland Lebel, Le Maroc chez les auteurs anglais. Paris: Larose, 1939, p. 145.

33 Leared, Morocco and the Moors, p. v.

34 Leared, A Visit to the Court of Morocco, Preface.

35 Sir R. Lambert Playfair and Dr. Robert Brown, A Bibliography of Morocco from the Earliest Times to the End of 1891. London: John Murray, 1892, entry N° 1203.

36 Edmund Burke III, Prelude to Protectorate in Morocco. Pre - colonial Protest and resistance 1860 - 1912. Chicago: The University of Chicago, 1976, p. 24.

37 Leared, Morocco and the Moors, p. vi.

38 انظر الإحالة رقم 24 حول المؤلفين الحقيقيين لهذا الكتاب.

39 Morocco and the Moors، p. 161

40 المرجع نفسه، ص 161.

41 إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة وتقديم: كمال أبو ديب. بيروت: دار الآداب، 1997، ص 142.

Edward Said, Culture and Imperialism. New York: Vintage Books, 1993, p. 74.

42 Mary Louise Pratt, Imperial Eyes. Travel Writing and Transculturation. London: Routledge, 1992, p. 204.

43 Sadik Rddad, "Agency Relocated: Hybridity and Resistance in Some British Travel Accounts on Morocco," Studies in Travel Writing, Vol. 3, Issue 1, 1999, p. 116.

44 Morocco and the Moors, p. 49.

45 Morocco and the Moors, p. vi.

46 إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ص 55.

47 Khalid Chaouch, "English Travel Accounts as Sources of Moroccan History," in Middle Ground, Journal of the Research Center on Culture and Communication, N° 02, 2008, p. 27.

48 من خلال تصفح مواقع تسويق الكتب على شبكة الإنترنت (خاصة Amazon، وBarnes and Noble، وOnline Library)، يبرز بشكل جلي هذا الاهتمام المتجدد والمتزايد بكتابي آرثر ليرد؛ فقد طُبع الكتاب الأول (Morocco and the Moors) سنة 2007 (مرتين) و2009 و2010، بالإضافة إلى طبعة جامعة كامبريدج (يناير 2011)، وطبع الكتاب الثاني (A Visit to the Court of Morocco) على الأقل مرتين: سنتي 2007 و2009.

49 Susan Bassnet, "Preface," Studies in Travel Writing, Vol. 3, Issue 1, 1999, p. 13.

المصادر

المصادر العربية

1- **بجيت، كريم**، «الرحلة بين النص والوثيقة: صورة طاعون سنتي 1798 و1800 ومخلفاته في رحلة جيمس جري جاكسون»، في كنانيش (الديموغرافيا التاريخية في أدب الرحلة)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، رقم 3، صيف - خريف 2001، ص 63 - 74.

2- **بن الصغير، خالد**، «المغرب بين النفوذ البريطاني والألماني خلال القرن التاسع عشر»، المغرب وألمانيا، منشورات جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، الرقم 17، 1991، ص 51 - 66.

3- المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856 - 1886). الدار البيضاء، الشركة المغربية للنشر، ولادة، 1990، 505 ص.

4- **التازي، عبدالهادي**، التاريخ الديبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم. المجلد العاشر، عهد العلويين 2، المحمدية: فضالة، 1989 - 1409، 335 ص.

5- ، «التاريخ الديبلوماسي للمغرب من أواخر القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين»، في مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث (من عصر الحسن الأول إلى عصر جلالة الحسن الثاني)، إشراف عبدالحق المريني، الرباط: دار المناهل للطباعة والنشر، 1996، ص 391 - 397.

6- **سعيد، إدوارد**، الثقافة والإمبريالية، ترجمة: وتقديم كمال أبو ديب. بيروت: دار الآداب، 1997، 437 ص.

7- **شاوش، خالد**، «الرحالة الإنجليز إلى المغرب»، معلمة المغرب، المجلد 13، مطابع سلا، 2001، ص 4297 - 4299.

8- **الوزان الفاسي**، الحسن بن محمد، وصف أفريقيا. ترجمه (عن الفرنسية): محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1983، 383 ص.

المصادر الإنجليزية والفرنسية

1- **Al - Wezan [Al - Wazzan] Al - Fasi, Al - Hassan Ibn - Mohammed**, known as Leo Africanus, The History and Description of Africa and of the Notable Things Therein Contained. Done into English in the year 1600 by John Pory, and Edited with an Introduction by Robert Brown. Vol. II. London: The Hakluyt Society, 1896, 698 p.

2-3- **Anonymous**, Moorish Literature. Translated into English with a Special Introduction by René Basset. London & New York: The Colonial Press, 1901, 281 p. (http://www.archive.org/details/cu31924027722085, accessed in 26 October 2010).

4- **Bassnett, Susan**, "Preface" in Studies in Travel Writing, Vol. 3, Issue 1, 1999, pp. 1 - 13.

5- **Bekkaoui, Khalid**, "Introduction: The Battle of Alcazar and Entry of Morocco into English Literature" in George Peele, The Battle of Alcazar. Moroccan Cultural Studies Centre, Fez. Casablanca: An - Najah al - Jadida, 2001, pp. 1 - 36.

6- **Burke III, Edmund**, Prelude to Protectorate in Morocco. Pre - colonial Protest and resistance 1860 - 1912. Chicago: The University of Chicago, 1976, xxii - 306 p.

7- **Chaouch, Khalid**, "English Travel Accounts as Sources of Moroccan History." in Middle Ground, Journal of the Research Centre on Culture and Communication, N° 02, 2008, pp. 08 - 27.

8- De Castries, Henry, Les Sources inédites de l'histoire du Maroc. Première Série: Angleterre – Dynastie Saadienne 1530 - 1660. Tome I (Paris: Ernest Leroux ; London: Luzac, 1918), 574 p.

9- Leared, Arthur,

Morocco and the Moors. London: Sampson Low, Marston, Searle, & Rivington, 1876, 370 p. The second edition is entitled Marocco and the Moors, and is edited by Richard Burton. London: Sampson Low, Marston, Searle, & Rivington, 1891, 354 p.

• , A Visit to the Court of Morocco. London: Sampson Low, Marston, Searle, & Rivington, 1879, 86 p.

10- Lebel, Roland,

Le Maroc chez les auteurs anglais. Paris: Larose, 1939, 163 p.

• , «Le Maroc dans les relations des voyageurs anglais aux XVIe, XVIIe et XXVIIIe siècles» in Hespéris, Tome IX, année 1929, 4e Trimestre, pp. 269 - 294.

11- Lewis, Windham,

Journey into Barbary. Edited by C. J. Fox. Santa Barbara: Black Sparrow Press, 1983, 234 p.

12- Playfair, Sir R. Lambert, and Dr. Robert Brown, A Bibliography of Morocco from the Earliest Times to the End of 1891, in the Bibliography of the Barbary States. Vol. 3, Part IV. London: John

13- Murray for the Royal Geographical Society, 1892, pp. 201 - 476.

14- Mary Louise Pratt, Imperial Eyes. Travel Writing and Transculturation. London: Routledge, 1992, 257 p.

15- Sadik Rddad, "Agency Relocated: Hybridity and Resistance in Some British Travel Accounts on Morocco," Studies in Travel Writing, Vol. 3, Issue 1, 1999, pp. 116 - 130.

16- Richardson, James, Travels to Morocco. London, 1859. (http://www.fullbooks.com/Travels - in - Morocco - Vol - 1 - 1.html).

17- Said, Edward, Culture and Imperialism. New York: Vintage Books, 1993, p.380.